من روائع

جبران خليل جبران

عيسى

نقله إلى العربية وقدم له

الدكتور ثروت عكاشه

من روائع

جبران خليل جبران



نقله إلى العربية وقدم له

الدكتور ثروت عكاشه



دار المعارف بمصر

١٩٦٢

JESUS
THE SON OF MAN

اللوحات بريشة جبران خليل جبران

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

إهـــداء

إلى الذين تؤنسهم دقة التعبير ،
ويطمئنون إلى ما وراء المادة من أسرار .
إلى هؤلاء الذين يستهويهم الأدب بجوهره ،
وإن حمل من الرأى ما لا يسيغون .
إلى من يتعشّقون جمال الفكر ،
وسحر البيان ، ويضعون ذلك كله
فوق مذاهب الرأى ، فلا يتعصّبون .
أقدّم كتاب : « عيسى » لجبران خليل جبران . . .

ثروت عكاشه

تقديم

هذا كتاب وضعه جبران خليل جبران ، عن عيسى ، واختار له هذا العنوان : عيسى ابن الإنسان .

وما أحوجنا إلى عودة سريعة إلى الوراء لكى نفهم كتابه هذا ونتذوقه ونتعمق قصد المؤلف منه .

نعود إلى جبران نفسه ، وإلى الجو الفكرى والعاطفى الذى عاش فيه ، فى الفترة التى أخرج لنا فيها هذا الكتاب .

كان جبران خليل جبران قد فرغ من كتابه « النبى » وكان نجاحه فى ذاك الكتاب ، والصدى المدوّى الذى تركه فى نفوس القراء ، والاستقبال الرائع الذى استقبل به ، كان لذلك كله أثره فى نفسه ، وهو المغترب القلق ، البائس اليائس ، الذى يواجه حياة تختلف عما ألف من حياة ، ويختلط بقوم يختلفون عن قومه فى الشرق البعيد .

ولقد استعاد جبران ما كان قد فقد من ثقة ، واسترد ما كان قد تبدد من أمل ، وأحس أنه يستطيع أن يجعل من حياته شيئًا ذا قيمة ، وأن يخلف وراءه أعمالاً ذات شأن ، ورسم لنفسه ما ينتج فيما بقى له من عمر .

فى كتاب « النبى » ، تناول جبران ، صلة الإنسان بالإنسان ، ووضع الأسس التى آمن بأن تقوم عليها هذه الصلة .

وأراد أن يمضى لينير الطريق أمام قرائه ، بعد أن شغفوا بكتابه « النبى » ، فصحّ عزمه على أن يعالج سائر صلات الإنسان بالطبيعة فى « حديقة النبى »، ثم بالله فى « موت النبى » .

وبدأ جبران يعدّ نفسه لهذه المهمة ، عقلياً ونفسياً ووجدانياً .

ولعله أدرك أن المهمة ليست من السهولة واليسر كما كان يتصور . بل لعلّه أحسّ أنه محتاج إلى تدريب نفسى وشحذ للخيال حتى يتهيأ لتنفيذ ما اعتزم .

ولم يكن « جبران » فى هذا غريباً ، بل ربما كان فى هذا منطقياً مع تاريخه ، ومع تجربته فى كتاب « النبى » .

فلكى يخرج جبران « النبى » ، احتاج إلى إعداد نفسه بأعمال أخرى سبقت عمله هذا الكبير ودلّت عليه .

من ذلك قصته « إرم ذات العماد » التى نشرت فى كتابه « البدائع والطرائف » وفيها اتضح منهجه الذى ترسّمه فى « النبى » ، وجاء متأثراً بالروح التى أملت عليه ما فى « النبى » من آراء .

* * *

وكان جبران محتاجاً إلى تهيئة أخرى ، ليخرج لنا « حديقة النبى »،

فكان كتابه « رمل وزبد » ، ثم كان هذا الكتاب ، وقد سمّاه « عيسى ابن الإنسان » .

وكان الأول : « رمل وزبد » مجموعة من تأملات « جبران » ، وحدة بينها ولا ارتباط ، غير أنها كانت فى عمومها تعبيراً عما تنطوى عليه نفس « جبران » فى هذه الفترة من تاريخه ، ودليلاً على صوفيته الرقيقة .

أما الثانى : « عيسى ابن الإنسان » فكتاب ذو موضوع ، تربطه وحدة عقلية وعاطفية معاً .

فمن الناحية العقلية ، أراد « جبران » أن يقول رأياً فى المسيح غير ما ألف الناس أن يسمعوه من المؤرخين الذين تناولوا حياته بالشرح والتحليل .

ولعل العنوان الذى وضعه جبران للكتاب وهو « عيسى ابن الإنسان » دليل واضح على ما اتجه إليه الكاتب من الرأى فى السيد المسيح .

ولجبران أن يتبنّى ما شاء من آراء .

وإذا كنا نحترم رأيه ، فإن ذلك الاحترام لا يمنعنا من أن يكون لنا فيه رأى آخر يتضح من العنوان الذى اتخذناه للكتاب ، حين قدّمناه لقراء العربية ، وآثرنا أن يكون عنوان الكتاب هو « عيسى » لا « عيسى ابن الإنسان » كما وضعه جبران .

وأيًّا كان الخلاف فى هذا الرأى بيننا وبين جبران، فالشيء الذى لا شك فيه ، أن جبران صاغ آراءه فى قالب أدبى رائع ، يفيض بالحب والتجرّد . وهنا تأتى الوحدة العاطفية فى كتاب جبران .

إذ كتاب « جبران » عن « عيسى » يزخر بعاطفة رقيقة ، يتسامى بها خيال شاعر ، فإذا هى أدب حلو ممتع ، يعرض لجوانب مختلفة مليئة بالحياة ، فتحسّ وأنت تقرأ الكتاب ، أن صفحاته قطع من حياة تتحرك بين يديك وتحت بصرك .

* * *

و « جبران » يحاول فى الكتاب أن يعرض ما ذهب إليه الناس على اختلافهم فى المسيح ، فيضع إلى جوار رأى الذين أحبوه ، رأى الذين أبغضوه وقاوموه ، ولكن روعة الأدب فى الكتاب ، تجعل الرأيين يلتقيان على حب المسيح والرثاء لخصومه .

آراء سبعين متكلمًا عاشوا منذ ما يقرب من ألفى سنـــة كان منهم الحانق المتحامل ، وكان منهم المحب المجامل . يسوق جبران ما يراه لهم على ألسنتهم ، ولم ينس أن يكون واحداً من هؤلاء حين ساق فى خاتمة الكتاب كلمة على لسان رجل من لبنان بعد مرور تسعة عشر قرنًا على مجيء يسوع ، ولم يكن هذا الرجل غير جبران .

* * *

فجبران فى هذا الكتاب يحدثك عن يسوعه بألسنة معاصريه ، بلسان التلميذ ولسان الجار ولسان الصديق ولسان العدو ، بألسنة هؤلاء المعاصرين جميعاً ، منهم من ذكر فى الإنجيل ومنهم من اختلقته مخيلة جبران .

غير أن ميخائيل نعيمه يلاحظ أن ثمة فروقاً بين يسوع — كما جاء ذكره فى الإنجيل — ويسوع . كما تخيّله جبران .

« فيسوع كما فى الإنجيل وُلد فى بيت لحم من عذراء، ويسوع الذى تخيله جبران ولد فى الناصرة من رجل وامرأة .

ويسوع كما ذكر فى الإنجيل يبكى ويتألم ، ويسوع كما ذكره جبران فوق الدموع وفوق الألم .

ويسوع فى الإنجيل يُظلّ المساكين والفقراء بروحه ، ويسوع عند جبران لا يعرف المسكنة ولا يرى غبطة فى الفقر .

ويسوع فى الإنجيل يهتف على الصليب : إلهى لماذا تركتنى ! لأنه كما يرى جبران لم يكن قد تغلب بعد على كل ضعف فى بشريته، ويسوع جبران كما تخيله لا ضعف فيه فهو يهتف : لماذا تركتنا ! . »

وهكذا كان جبران راغباً فى إظهار يسوع بعينى نفسه ، ينسج الموعظة تحاكى الموعظة التى ذكرت فى الإنجيل ولكنها تغايرها مبنى وروحاً ، ويسرد الأحداث فيسقط منها أو يضيف إليها متأثراً بما تمليه روحه حين يحذف وحين يضيف .

وجبران ليس مؤرخاً فى كتابه يستلهم الأحداث كما وقعت وكما تروى، بل هو شاعر وفنان يستلهم من شعره ويستلهم من فنه، ومن أجل ذلك أضفى على يسوع ما يفيض به قلبه من إعجاب ومحبة وتقديس .

* * *

ثم إن أدب « جبران » فى هذا الكتاب كما هو فى غيره مظهر من مظاهر صراعه مع الألفاظ التى يستعملها كأدوات للتعبير عما يريد .

ولقد كان هذا الصراع مقدمة للثورة التى قامت فى أعقاب الحرب الأولى فى الحقل الأدبى ، على تحكم قلسية الأساليب وقلسية الألفاظ .

وكما قامت ثورة اجتماعية إذ ذاك ، تهدف إلى تحرير الفرد من الاستبداد والسيطرة ، فقد قامت هذه الثورة فى الأدب تهدف إلى تحرير اللغة والفكر من قيود الأساليب وأسر الألفاظ .

على أن هذه الثورة مضت لم تمس الجوهر إلا فى القليل ، كما جاء فى تحليل « جان لوسير» لصوفية جبران ، فى كتابه الصغير العميق : « النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران » .

ومهما يكن من شىء فقد حددت هذه الثورة طريقها ، فعنيت بأن يكون الأساس فى التعبير سيطرة المعنى على الصور اللفظية .

ولم يكن جبران مستطيعاً أن ينجو من هذه الثورة والسير فى مدارها ، فقد كانت طبيعة حياته تفرض عليه هذا الاتجاه ، وهو المغترب البائس ، الذى يعيش فى بيئة جديدة عليه ، مختلفة عن بيئته الشرقية .

بدأ صباه بثورة عاصفة ، ثم هدأت هذه الثورة ، فحملته إلى نوع

من الاستقرار الكئيب ، ثم انتهت به إلى ميل جارف للعزلة ، والبعد عن الناس والمجتمعات .

* * *

كان لهذه الثورة ، على مراحلها المختلفة ، أثر فى إنتاج جبران ، فالبستانى يروى عنه أن النسخة الأولى من كتابه « النبى » — وهو الكتاب الذى حقق له الشهرة والمجد والثراء ، وانتشر فى أمريكا ، حتى لقد كانت ترتل فقراته فى الكنائس والأديرة — كتب بالعربية ، ولما عرضه « جبران » على أمه ، قالت ان الكتاب رائع ، ولكنه يصدر قبل الأوان .

وكانت هذه الملاحظة سببا فى أن يترك « جبران » الكتاب خمس سنوات ، تغيب خلالها أمه إلى غير رجعة .

ولما عاد إلى كتابته مرة أخرى ، كتبه بالعربية أيضا ، فلما راجعه ذكر ما قالته عنه أمه فمزقه من جديد .

ثم قرر « جبران » أن يكتب الكتاب بالإنجليزية ، فكانت له هذه الشهرة ، وحدد مكانة « جبران » بين كتاب عصره ، فترجم إلى أكثر من عشر لغات ، منها لغته الأصلية العربية ، ولكن جبران لم يرض عنها ، فقرر أن يعود مرة أخرى يحاول كتابته بالعربية .

هذه الرواية تقفنا على أن « جبران » ككثيرين من رواد عصره ، عاشوا حياتهم الأدبية فى صراع بين المعنى والمبنى ، أو بين المضمون

والشكل ، أو بين ما يدور فى عقولهم ووجدانهم من أفكار وانفعالات ، وبين الألفاظ التى يعبرون بها عن هذه الأفكار والانفعالات .

* * *

ويسوقنا هذا إلى أفكار جبران وانفعالاته ؟

ماذا كان يريد جبران أن يقول ؟

وكيف كانت هذه الألفاظ تعجز عن حمل ما يريد أن يقوله للناس.

إن « جبران » القلق ، لم يكن يرضى عن أعماله ، ولا عن إنتاجه ، فقد بعث إلى « نسيب عريضة » طالباً إليه ألا ينشر مقالاته فى كتاب « دمعة وابتسامة » . وعند ما نشر « نسيب » الكتاب أورد فى مقدمته ما كتبه إليه جبران قائلاً :

ذاك عهد من حياتى قد مضى بين تشبيب وشكوى ونواح

ومضى « جبران » يقول :

« إن الشاب الذى كتب "دمعة وابتسامة" قد مات ودفن فى وادى الأحلام ، فلماذا تريدون نبش قبره ؟ » .

بل عندما نقدت الكاتبة « مى زيادة » كتابه : « دمعة وابتسامة » كتب إليها يتنصّل من مسئولية الكتاب ، بل من مسئولية أعماله جميعاً فقال فى رسالته :

« لا تذكرى أعمالى الماضية لأن ذكرها يؤلمنى ، لأن تفاهتها تحوّل

دمى إلى نار محرقة ، لأن نشوفتها تولد عطشى ، لأن سخافتها تقيمنى وتقعدنى ألف مرة ومرة كل يوم . لماذا كتبت تلك المقالات وتلك الحكايات ؟ لماذا لم أصبر ؟ لماذا لم أضنّ بالقطرات فأدخرها وأجمعها ساقية ؟ » .

على أن رسالته إلى « مى زيادة » تمضى فتكشف عما كان جبران يدخره فى نفسه . . .

« لقد ولدت وعشت لأضع كتابًا واحداً صغيراً لا أكثر ولا أقل . وقد ولدت وعشت وتألمت ، لأقول كلمة واحدة حيّة مجنّحة . ولكنى لم أصبر ، لم أبق صامتًا ، حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتىّ . لم أحفل بذلك ، بل كنت ثرثاراً ، فيا للأسف ، ويا للخجل ! وبقيت ثرثاراً حتى أنهكت الثرثرة قواى ، وعند ما صرت قادراً على لفظ أول حرف من كلمتى وجدتنى ملقى على ظهرى ، وفى فمى حجر صلد » .

وفى رسالة أخرى إلى « مى » يقول جبران :

« أتعلمين يامى أنى ما فكرت فى الانصراف الذى يسمّيه الناس موتًا إلاّ وجدت فى التفكير لذة غريبة ، وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل ، ولكنى أعود فأذكر أن كلمة لا بد من قولها . لا لم أقل كلمتى بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان ، وهذا يجعل الوقوف عن العمل مرًّا كالعلقم ، أقول يا مىّ ، ولا أقول لسواك ، إنى إذا ما انصرفت قبل

تهجئة كلمتى ولفظها ، فإنى سأعود لأقول الكلمة التى تتمايل الآن كالضباب فى سكينة روحى » .

إذن فلقد كان جبران صوفيًا عميق التأمل ، وكان يؤمن أن له كلمة لابد من أن يقولها ، ورسالة لا بد من أن يؤديها قبل أن يرحل ، فإن رحل فسيعود مرة أخرى ليؤديها ، وبهذا كان يؤمن بالبعث ، وبتناسخ الأرواح وبفلسفة الشرق وعقائده .

لقد كان دائمًا يردد : « أنا دائمًا فى انتظار . أنا دائمًا أنتظر ما لا أعرفه ، ويخيل لى فى بعض الأحايين أننى أصرف حياتى مترقبًا حدوث ما لم يحدث بعد » .

كما كان يقول : « جئت لأقول كلمة وسأقولها ، فإذا أرجعنى الموت قبل أن ألفظها ، يقولها الغد ، فالغد لا يترك سرًا مكنونًا فى كتاب اللانهاية ، والذى أقوله الآن بلسان واحد ، يقوله الآتى بألسنة عديدة » .

* * *

فى هذا الضوء من النظرة لأدب جبران وفكره ، يمكن أن نقرأ كتابه عن السيد المسيح . وسنجده فى هذا الكتاب ، كما نجده فى سائر إنتاجه ، يعتصر نفسه ، ليقدم لنا جزءاً مما آمن بأنه رسالته وأنه كلمته .

* * *

ففى كتابه عن عيسى ، نجده يروى على لسان ذلك المحامى « منسى »

الذى كان فى بيت المقدس :

« ومن أسف أن أعداءه عارضوه وأصرّوا على أن يضعوا حدًّا للمشكلة وما كان أولاهم ألاّ يفعلوا ، فإنى لأرى أن خصومتهم ستزيد من قدره ، وتحيل من لينه قوة .

أوليس غريباً أنك تُكسب الرجل شجاعة إذا عارضته ؟

وأنك حين تُعوّق رجليه عن المسير تهيئ له جناحين ؟

ولست أدرى من هم أعداؤه ، غير أنى على يقين أنهم حين خافوا رجلاً غير ذى أذى قد أعاروه قوة وجعلوه خطيراً » .

كما يصوّره لك وهو يروى على لسان « منّوس البومبى » وهو يقول إلى رجل من اليونان :

« وعلى حين نبنى نحن الرومانيين لآلهتنا معابد من رخام ، إذا هؤلاء الناس يناقشون طبيعة أربابهم . ونحن ، حين نطرب ، نغنى ونرقص حول مذابح عطارد وجونو والمريخ والزهرة ، أما هم فحين يطربون يلبسون رثّ الثياب وينثرون فوق رؤوسهم الرّماد .

وعيسى ، هذا الإنسان الذى عرّف الله بأنه مصدر السرور ، قد عذّبوه ثم أسلموه إلى الموت » .

بل إن جبران يصوّره ، وهو يسوق طعن الطاعنين فيه ، أقسى ما يكون ذلك الطعن وأعنفه وأشده وأحرجه ، وذلك حين يقول على لسان

يوسف الملقب : « العادل » :

« كانوا يقولون إنه سوقيّ ، نبات غير متميّز من أصل غير متميّز ، ورجل غليظ عنيف .

ويقولون : ما كان يمشط شعره غير الريح ، وما كان يجمع بين جسده وثيابه غير المطر .

ويعدّونه ذا جنّة ويعزون كلماته إلى الشياطين » .

هذا ما ساقه جبران عنيفاً على لسان الطاعنين ، فانظر إلى ما عقّب به جبران على هذا الطعن فى هوادة ورفق ولين .

« ولكن ها هو ذا الرجل المهين قد ارتفع صوته متحدّياً ، ولسوف يبقى التحدّى إلى الأبد متّصلاً » .

* * *

وغير بعيد من هذا كلمة « أرملة من الجليل » ، فلقد أجرى جبران على لسانها الحقد على عيسى والحطّ من شأنه ، ولكنه ما كاد يختم حديثها الذى امتلأ بغضاً وامتهاناً ، حتى كشف سر ذلك بجملة قصيرة أوردها على لسانها حيث يقول : « نعم إنى أكره الناصرى وسوف أكرهه إلى آخر حياتى ، لأنه سلبنى ابنى البكر — ابنى الوحيد » .

نعم ما يكاد ينتهى إلى هذا الحد من قولها حتى تجدك قد عرفت مبعث هذه الكراهية وعزوتها فى يسر إلى هذا السبب الذى صرحت به

الجليلية ، وهو فقدانها ابنها البكر الوحيد وذهابه مع عيسى حوارياً من الحواريين ، فهى لم يعنها أن يعيش ابنها للوجود الحق ، وإنما الذى عناها وأفزعها أن يعيش ابنها بعيداً عنها مع عيسى .

* * *

وكذلك كان « جبران » وهو ينطق « حنّان » رئيس الكهنة فلقد أطلق لسانه بما ينطلق به لسان من هم فى مكانته ، بحقد الموتور وبغض المغلوب على أمره ، فإذا كلامه على عنفه هباء ، وإذا منطقه على قسوته هراء . فقد جرّده جبران من الحجة متظاهراً بأن الحجة له ، وذلك حين يقول على لسانه : « وبعقله الراجح العالى الصوت شهّر بنا جميعاً وتحدّانا ، لهذا قويت على أن أصلبه » .

* * *

ويبقى من حديث المبغضين بعد هذا حديثان ، أحدهما لأوريا ، الشيخ الناصرى ، وثانيهما لكاهن حدث من كفر نحوم .

والحديثان كلاهما يتفقان على اتهام عيسى بالتمرّد صبياً ، وبالطيش فتياً وبإعلانه الحرب على قومه رجلا قوياً .

* * *

وما ساق « جبران » حين ساق إلاّ حياة رجل عظيم ، فهكذا ينشأ العظماء وهكذا ينتهون .

* * *

وهكذا نرى « جبران » لا يجرّد كتابه من حديث الكارهين فيبدو مغرضًا مقصراً ، ولكنه لا يسكت عن مقارعتهم الحجة ومعارضتهم الرأى .

وليس هذا منهجًا هيّنا على رجل لا يملك نظرة جبران أو رسالته أولاً ، ثم فن القول ثانيًا ، ثم خيال الشاعر ثالثًا .

كان « جبران » ذا رسالة وذا فن وذا شاعرية . من أجل ذلك عرض بهذه الوسائل الثلاث : رسالته وفنه وشاعريته ، لأجلّ ما يعرض له الباحثون ويدقّ على المفكرين ، ولقد عالجه فى يسر وعبّر عنه فى عذوبة وخرج منه بهذا الكتاب .

* * *

وكانت سبيل « جبران » إلى هذه الرسالة تختلف عن سُبل الكثيرين ، فهو لم يبلغ مبلغه فيها بعقله ، يناقش أسبابه ، فيقيم الفروض ويرتب النتائج ويلائم بين هذه الفروض وتلك النتائج ، ويثير بين يديه مشاكل قلّ أن تسلم معها رسالة . بل بلغ « جبران » ما بلغ بروحه ، فهو قد تلقّف ما يؤمن به عن هوى ، تعشّقته نفسه وهام به فؤاده ، فإذا ما آمن به أصبح قطعة من نفسه وأصبح قطعة من فؤاده .

من أجل ذلك كانت صلته بتلك المشكلة التى أثيرت ولا تزال تثار حول طبيعة المسيح هيّنة يسيرة ، لا يعرف هذا الخلاف الذى وقع فيه غيره ، لأنه عرف المسيح كما هداه إليه حبه لا كما هداه إليه عقله .

* * *

* * *

إذن كان جبران ممَّن غلب حبهم عقلهم ، فكان فيه هذا التسامى ، وكان فيه هذا التجرّد ، وكانت صلته بالأشياء يسيرة هينة ، لا يعنيه أن يرضى الناس أسلوبه ما دام هو قد ارتضاه ، فالمرء لا يؤمن إلاّ عن رضى منه بما يعتقد ، ولا يخضع فى هذا الإيمان لما يريده الناس ويرضونه .

وبهذه النفس وبتلك الروح عالج جبران قضية عيسى ، وإذا هذه القضية أنشودة عذبة يتغنَّى بها المحبّون .

إنه يقول على لسان يوحنا بن زبدى :

« إنكم لترون نفراً منا يدعو عيسى " المسيح " ، وأن آخرين يسمونه " الكلمة " ، ونفراً ثالثاً يقولون له " الناصرى " ، وغيرهم ينادونه " بابن الإنسان " ، وسأجهد جهدى فى أن ألقى على هذه الأسماء من النور الذى فاض علىّ لتبين .

فالمسيح الذى وُجد من قديم الأزمان هو قبس من نور الله حلّ فى روح الإنسان .

وهو نسمة الحياة التى تحلّ فينا ثم تتخذ لها جسداً كأجسادنا تسكنه .

هو إرادة الله ومشيئته .

هو الكلمة الأولى تودّ لو جرت فى أصواتنا وعاشت فى آذاننا لعلَّنا نعيها ونتدبَّرها .

وإن كلمة الله ربّنا قد بنت لها بيتًا من لحم وعظم، واستوت بشراً ، مثلى ومثلك .

لقد ولد عيسى الناصرى وتربّى مثلنا ، وكان إنسانًا .

أما المسيح الكلمة الذى كان فى البداية ، والروح التى تريد لنا أن نعيش حياة كاملة ، فقد جاء إلى عيسى وكان معه .

والروح كانت يد الله المدبِّرة ، وعيسى كان القيثارة .

الروح كانت الأنشودة ، وكان عيسى النغمة التى رتّلتها .

وعيسى رجل الناصرة كان مضيف المسيح ولسانه الناطق .

هو الذى كان يسير معنا فى الشمس ويدعونا أصدقاءه .

كان ابن الإنسان هو عيسى المسيح ، الرحيم الكريم ، الذى أراد أن يكون لنا جميعًا .

كان هو عيسى الناصرى الذى قاد إخوانه إلى المسيح ، وإلى الكلمة التى كانت كلمة الله منذ الأزل » .

* * *

هكذا فى مثل هذا الإيمان وبذلك المنطق الروحى يكتب جبران .

وفى مثل هذا اليُسر استقامت لجبران حجّته عن أمومة عيسى ، وإنه ليعرضها على لسان مريم المجدلية فتقول :

«لقد أبغضتموه لأن نفرًا قالوا : قد ولدته عذراء وليس من لقاح رجل . . .

إنكم لا تعلمون أن الأرض قد زُفَّت إلى الشمس . . . وأن بين هؤلاء الذين يحبونه وأولئك الذين يبغضونه ، هؤلاء الذين يؤمنون به وأولئك الذين لا يؤمنون به ، هُوَّة فاغرة » .

ويروى حكاية عن سوسنّة الناصرية جارة مريم :

« وذات يوم عند ما كان فى الثانية عشرة من عمره أخذ بيدى رجل أعمى وعبر به مسيل ماء حتى بلغه مأمنه من الطريق العام .

وسأله الرجل الأعمى مُقرًّا بفضله : أيها الصبي الصغير من تكون ؟

فأجاب : لست هذا الصبي الصغير ، إننى أنا عيسى .

وقال الأعمى : ومن أبوك ؟

فأجاب : إلى الله أُعزَى .

فضحك الرجل الأعمى وقال : نِعْمَ ما تقول يا بنيّ الصغير ، ولكن من تكون أمك ؟

فأجاب عيسى : لست لك ذلك الابن الصغير ، وإن أمى لهى الأرض .

فقال الرجل الأعمى : إذن فتدبَّر ، لقد قادنى ابن للرب والأرض عبر المجرى .

فأجاب عيسى : وسوف أقودك حيثما تذهب ، وسوف تلازم عيناى قدميك » .

هكذا فى منطق الروح لا منطق العقل يصوغ جبران ويتحدث ،

وهو يحب للناس أن يدركوا ما أدرك ، وأن يفسحوا لأرواحهم قبل أن يفسحوا لعقولهم ، فهم بأرواحهم مهتدون إلى ما لا سوف تهتدى إليه عقولهم » .

* * *

أما حواريوه والمتصلون به ، فقد عنى جبران بأن يسوق على ألسنتهم ما وصفوه به ، وما ردّدوه عنه فى أسلوب شعرى أخّاذ ، وعاطفة متدفقة .

نظم من ذلك كله باقة منسقة ، ليس بعدها شىء لمن أحب عيسى فأخلص فى حبه له . وفى هذا كله درس وعظة ، وقدوة وأسوة ، وبطولة وشجاعة ، فيه الصدق والوفاء ، وفيه ألم الغدر ومرارة الندم .

فيه هذه الحكم الكثيرة ، وفيه هذا التأريخ كما رآه جبران ، وفيه هذا المنطق الروحى الذى يشق سبيلاً جديدة أمام الذين يريدون أن يكون لهم إيمان فى صفاء الماء ، ويقين فى طهر الصلاة ، وعقيدة فى نقاء الطبيعة .

نحسّ ذلك كله فى مقطوعات هذا الكتاب التى وردت على لسان بيلاطس ، ويوحنا ، ونعمان ، وأحاز ، وسمعان ، ومريم المجدلية ، فى تلك العبارات الشعرية التى انفرد بها جبران .

هذه مريم المجدلية تصفه :

« لقد كان يحكى ليلا لا يغشاه ظلام ، ونهاراً لا تعكره جلبة النهار . ولكنى عند ما وقفت بين يديه أتحدث إليه كان رجلاً من الرجال ؛

وكان وجهه أقوى من أن أتطلع إليه » .

واستمع إليه يقول على لسان زاخوس : « أجل لقد كان فى وسع عيسى أن يهرب من أعدائه ويعيش إلى أن يعمَّر ، ولكنه كان يعلم أن الزمن إلى تحوّل وكان بودّه أن يغنِّى أغنيته » .

* * *

بل إن عيسى نفسه يخاطب حوارييه ، وقد مرّ بهم على سجن فى برج داود فيقول : « أنتم سجناء ولكن لستم وحدكم ، فما أكثر هؤلاء السجناء الذين يسعون فى فضاء الأرض ، لم ينل أجنحتهم مقصّ ، ولكنهم أشبه بالطاووس ، يصفِّقون بريشهم ولا يستطيعون أن يحلِّقوا . »

ثم استمع أخيراً إلى برتلماوس ، وهو يقول عن عيسى ، أو استمع إلى جبران يجرى هذا الكلام على لسان برتلماوس :

« لم يكن الناصرى مع الأُجراء حرباً على السادة ، كما لم يكن مع السادة حرباً على الأجراء ، ما ناصر رجلاً على رجل . .

لقد كان رجلاً فوق الرجال ، وتلك التيارات التى تدفقت فى عروقه نهضت مجتمعة بالألم والقوة » .

* * *

هذا بعض ما أرّخ به جبران لعيسى على منهجه ، وبهذا يعرض « جبران » صفحات من الحب النقى ، فى أسلوب جميل ، يزيده الحب

واليقين جمالا" . وما أعنى هذا جبران من أن يؤخذ عليه أنه جاوز التعبيرات التى ألفها من يخضعون أمور الدين لأساليب المنطق .

* * *

وبعد . فلقد رثى جبران عيسى ، رثاه على لسان غيره ، ورثاه بلسانه هو ، وهو فى الحالين يفصح عما يحس ، ولكنه مع الأولى يفصح عن حزن يتصوره وفى الثانية يفصح عن حزن يستشعره هو . .

وإليك بعض ما صاغه على لسان ڤوميا كبيرة الكاهنات فى صيدا :

« خـذن القيثـار وغنّـين معـى
الفـتى الجـرىء الذى قهـر مدائن الرجـال ،
وغلب نظائرها فى السهول ، تلك التى تلتف كالأفاعى فى الرمال
وهـو بعـد لمّـا ينازل الأقزام ، وإنما صارع آلهة
بهـا جـوع إلى لحـومنا وتعطّش إلى دمائنـا » .

* * *

ثم استمع إلى جبران وهو يندبه على لسان أندراوس :

« إن مرارة الموت لأهون من مرارة العيش دونه .

خرست الأيام وسكنت حركتها حين أسكته القضاء ، ولم يبق غير الصّدى تحمله ذاكرتى يردّد كلماته ولا يردّد صوته » .

* * *

ثم استمع إلى جبران وهو يندبه بلسانه هو فى تلك المرثية الطويلة التى يشير طولها إلى عمق ما فى نفس جبران من يقين وحب وإيمان :

« إن صَحْبك ما زالوا معنا راحة وأمْنًا
وكذلك أعداؤك قــوةً وطمأنينـــة
أملك معنـــا

أرى بهاء وجهها فى محيًّا الأمهات جميعًا
تهدهـــد بيدها الأكفان فى حنان » .

* * *

وأحب للقارئ بعد أن استمع لجبران يملى على ألسنة هؤلاء الذين اختارهم لكتابه أن يستمع له فى هذا الحديث الذى جرى بينه وبين صديق له هو الفيلسوف ميخائيل نعيمه حول هذا الكتاب ننقله كما أثبته ميخائيل فى كتابه « جبران خليل جبران » .

قال جبران . . . [الحديقة] ما برحت فى خاطرى ومثلها [موت النبى] ولكن ما قولك فى كتاب عن [يسوع] ؟ يسوع يساور أفكارى من زمان ، وقد سئمت الذين يؤمنون به يا ميشا — يعنى ميخائيل نعيمه — يتحدثون فيه ويتكلمون عنه ويصوّرونه كما لو كان سيدة بلحية ، فهو جميل لكنه مسكين ، ضعيف وفقير ووديع ومتواضع ، وسئمت الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذاً وساحراً .

وسئمت العلماء يأتونك بالأبحاث الطويلة والبراهين العقيمة ليثبتوا أو ليدحضوا وجوده وهو أكبر حقيقة فى حياة البشرية . وسئمت اللاهوتيين يحوكون له من مماحكاتهم السخيفة أكفاناً تحجبه عن الفكر والقلب فلا هو بشر مثلك فتقتدى به ولا هو إله تعبده . ويسوع بشر مثلى ومثلك ، وقد بلغت قحة أحد الكويتبين الأمريكان أن صوّر يسوع تاجراً محنكاً يرمى بكل تعاليمه إلى غاية مادية بحتة . فتأمَّل !

وعندى أنه كان رجل العزم مثلما كان رجل الرأفة ، وأنه قط لم يكن مسكيناً أو متمسكناً ، وأنا أكره المسكنة وأرى التواضع ظاهرة من ظواهر الضعف » .

فقال ميخائيل نعيمه من غير أن يجادله فى رأيه : يسوع موضوع لا ينضب مهما تناولته الألسن والأقلام ، ومهما كثرت الكتب عنه يظل هناك مجال لكتاب جديد . ولكن كيف تنوى أن تكتب عنه يا جبران ؟

قال جبران : « لقد اهتديت إلى قالب يعجبك يا ميشا . وبعد أن اهتديت إلى القالب أصبح الكتاب فى فكرى كأنه قد كتب ، فسأجعل معاصرى يسوع يتحدثون عنه كل حسب منازعه ومداركه . ومن أحاديثهم تتكوّن صورة يسوع كما أراه أنا ، وهو قالب يناسب أسلوبى كل المناسبة » .

* * *

وهكذا نبتت الفكرة فى رأس جبران ثم أخذت تتصوّر وتتشكل حتى استقامت له ، وما إن استقامت له الفكرة حتى أخذ يلهم هؤلاء كلهم ويستلهم من هؤلاء كلهم ، لا يأبه بما يعانى من داء أخذ يدب فى أوصاله ، ومضى يسابق الداء والداء يسابقه ، وكان أخشى ما يخشاه أن يسبقه الموت إليه قبل أن يسبق هو الموت إلى إنهاء هذا الكتاب . ولقد سبق جبران الموت فأتم كتابه فى صيف سنة ١٩٢٨ ، وما إن أهلّ الخريف من تلك السنة حتى كان الكتاب مطبوعاً . ولقد كتب جبران فى أول أكتوبر من هذا العام إلى ميخائيل نعيمه يقول : كتاب يسوع تناول صيفى مريضاً وصحيحاً . ولا أكتمك أن قلبى ما برح فيه رغم أنه قد صدر ، وطار من هذا القفص » .

* * *

هذا كتاب جبران عن « عيسى » .

تاريخ غير ما ألفناه من تاريخ ، فى أسلوب قل أن نتذوّق مثله بين الأساليب ، يراه قراء العربية فى لغة غير اللغة التى وضع بها أولاً وهى الإنجليزية .

ولم يكن الأمر سهلا ولا هيناً ، فقد كانت الترجمة الحرفية غير صالحة لنقل الروح التى وضع بها جبران كتابه عن المسيح .

كذلك كان إيضاح المعنى بإفاضة كاملة فى البيان ثوباً فضفاضاً يخرج عما ينبغى أن يتوفر للترجمة من التزام اللفظ كما وضع فى اللغة

التى كتب بها . ولقد اتخذنا بين ذلك سبيلا وسطاً ، قدمنا به نص جبران بشىء من العناية اللفظية حتّى تنعكس بذلك الروح التى وضع بها جبران كتابه عن السيد المسيح فى غير إخلال أو تزيّد .

وإنى لأرجو أن أكون قد وفّقت فى أداء جبران فى أسلوب عربى يبلغ من نفوس قراء العربية ما بلغه أسلوب جبران من نفوس قراء الإنجليزية .

المعادى فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦١ ثروت عكاشه




عیسی

يعقوب بن زبدى

فى مدينة أورشليم ، وفى يوم من أيام الربيع ، وقف عيسى فى ساحة السوق . إلى تلك الجموع الغفيرة . ليحدثهم عن ملكوت السموات .

وأنحى باللائمة على الكتبة والفريسيين الذين ينصبون الأشراك ويضعون الأشواك فى سبيل من يتشوقون إلى الملكوت . . . .

وكان من بين هذه الجموع فريق يظاهر الفريسيين والكتبة ، ويحاول جاهداً أن يمسك بعيسى وبنا ، فنأى عنهم عيسى بجانبه واستدبرهم ، وولَّى وجهه قِبل الشمال من المدينة ، وقصد البوابة وهو يقول لنا :

« لمَّا تحن بعدُ ساعتى

وسوف أقول لكم الكثير مما عندى

وكم من واجبات علىّ قضاؤها قبل أن أستسلم » .

ثم أضاف ، وفى نبرات صوته الغبطة الفرح :

« لِنَمْضِ إلى الشمال لنستقبلَ الربيع . هلموا معى إلى التلال فقد ولَّى الشتاء ، وها هى ذى ثلوج لبنان تتصوّب صوب الوديان لتشارك الجداول هزيجها .

وها هى ذى الحقول والكروم قد نفت الكَرى عن جفونها ، ونهضت يقظى تحيّى الشمس بتينها الأخضر وأعنابها الغضّة » .

ومنذ ذلك اليوم مضى لسبيله يمشي ونحن فى إثره .

وفى أصيل اليوم الثالث انتهينا إلى القمة من جبل التجلّى ، وهناك أشرف عيسى على السهول وما تضم من مدن .

والتفت إلينا يقول ، وهو باسط ذراعيه ، وقد أشرق وجهه إشراق التبر المذاب :

« تطلّعوا إلى الأرض فى جلبابها الأخضر ، وانظروا إلى الجداول وهى تجرّ أذيال ثيابها المطرزة بالفضة .

ألا ما أجمل الأرض ، ثم ما أجمل ما تحمل فوق ظهرها !

بيد أن هناك وراء كل ما ترون وتشاهدون ، مملكة ثانية ، سيكون الحُكم فيها إلىّ ، فإذا ما آثرتموها على سواها ، وكنتم فى ذلك جدّ راغبين ، حللتم إلى جوارى حاكمين .

وكما سأطالع الناس سافراً غير مقنّع ، كذلك ستطالعونهم ، ولن تجتمع لنا يد على سيف ، ولن تمسك بصولجان ، ولسوف يُغرم الناس بنا غراماً يحوطه الأمن ، ولن يستشعروا منا خوفاً » .

هكذا استرسل عيسى ، وإذا عيناى كأن عليهما غشاوة ، لا تبصران ما على الأرض من ممالك ، وما فيها من مدن بأسوارها وبروجها ، وإذا قلبي يخفق وهو يساير الهادى إلى مملكته .

وهنا خطا يهوذا الأسخريوطى — فى تلك اللحظة عينها — إلى الأمام ، حتى إذا ما كان من عيسى قاب قوسين أو أدنى قال له : هلاّ رميت



ببصرك إلى ممالك العالم الفسيحة الواسعة . ثم هلاّ رميت ببصرك إلى مدائن داود وسليمان التى ستُكتب لها الغلبة على الرومان : فإذا ارتضيت اليهود لك شعباً . ورضيت أن تكون لهم ملكاً . فستجدنا من حولك بسيوفنا وفى دروعنا ، ولسوف نكون لخصمك قاهرين .

وما يدرك عيسى أن يسمع ما سمع من يهوذا حتى يلتفت إليه ، وقد اربدّ وجهه غضباً ، وإذا هو يقول له ، وإن لصوته لجلجلة الرعد فى السماء : « اغرب عن وجهى أيها الشيطان ، أتحسبنى هبطت الأرض تلك الأعوام لأحكم جموعاً متراكبة من الذرّ ليوم واحد ؟

إن عرشى لا يحيط به بصرك .

وهل ترى من ينتظم الأرض تحت جناحيه يبغى مآبًا إلى عشّ عفّى عليه الهجر وطواه النسيان ؟

وهل ترى الأحياء يكسبهُم المُدرجون فى الأكفان شرفًا وعلوًّا ؟

إن مملكتى ليست من بين ممالك هذا العالم ، وإن عرشى لم يستو فوق جماجم أسلافكم .

وإذا كنت تتطلع إلى غير ملكوت الروح ، فأولى لك ثم أولى أن تدعنى ها هنا وتنحدر هابطاً نحو كهوف موتاك ، حيث تضم القبور تلك الرؤوس التى تُوّجت فى سالف الأزمان وانعقد لها اللواء ؛ ولعلها ما تزال تمنح رفات أجدادك البركات .

أمستطيع أنت أن تُغرينى بتاج قد صيغ من النفاية أو الأشواك

وأنا الذى أشمخ بجبهتى إلى الثّريا !

لو لم يكن الأمر حلماً قد طاف برءوس أجيال طواها النسيان لما سمحت لضوء شمسك أن تتجاوز مدى أنانى ، ولا لقمرك أن ينشر ظلّى عبر طريقك .

ولولا أنها رغبة أُم ، لما تجرّدت عن قماطى ولعدت أدراجى فراراً إلى الفضاء .

ولولا أنه الأسى يعمّكم أجمعين ما انتظرت لأذرف الدمع .

من أنت ومن تكون يايهوذا الأسخريوطى ؟ وفيم عداؤك لى ؟

ترى هل أتيح لك حقّاً أن تقدرنى قدرى ، فرأيت أننى جئت لأقود جيوشاً من الأمساخ ، وأدفع بعجلات أطياف لا صورة لها ، إلى عدو لا يعسكر إلاّ فى أحقادكم ، ولا يدبّ إلا فى مخاوفكم ؟

ما أكثر الديدان التى تزحف على قدمى . . ولن أنبرى لقتالها .

لقد ضقت ذرعاً بالهزل والمجون ، وعنّانى الرثاء للزاحفين الذين يعدّوننى جباناً ؛ لأنى لم أعل أسوارهم وأسير بين أبراجهم المحمية .

ومن أسف أنه حتّم علىّ أن آسى لهم حتى نهاية المطاف . ألا ما أرغبنى فى أن أخطو نحو عالم أكبر حيث يحيا رجال كبار . ولكن أين السبيل ؟

إن كاهنك وعاهلك كليهما يريدان دمى . وسيكون لهما ما يريدان قبل أن أرحل عن هذه الدنيا ، فما بى رغبة فى أن أتحدى القانون ، كما

لا أريد كبح جماح الطيش .

خلِّ الجهالة تنسل وتلد حتى تُنهكك نسلا .

خلِّ الضرير يقد الضرير إلى الهوّة .

وخلِّ الميْت يوار الميْت حتى يختنق الثرى بفاكهته المُرَّة .

إن ملكوتي ليس من ملكوت الأرض .

ولكن حيث يجتمع منكم اثنان أو ثلاثة على حب ، وعلى الإعجاب بما فى الحياة من جمال وبهاء ، وبما فيها من بهجة حلوة . . . ثم على ذكراى . »

وفجأة استقبل يهوذا وهو يقول له :

« تخلّف عنى أيها الرجل ، فلن يكون لك أبداً سلطان فى ملكوتى . »

* * *

وعند ذلك حلّ الغسق فالتفت وهو يقول :

« لنمض الآن . فقد أظلّنا الليل . نعم فلنمض فى الضوء ، والضوء يسايرنا . »

ثم هبط من التلال وهبطنا معه . وهبط فى إثرنا يهوذا ، وإن بيننا وبينه لبعداً شاسعاً .

وعندما لفّنا السهل المطمئن كان الليل قد أجنّ وتكلم توما — الذى يقال له التوأم — قائلا :

« لقد ساد الظلام الآن أيها السيد، ولم يعد بوسعنا أن نرى الطريق ، فسِر بنا — إن شئت — إلى أضواء تلك القرية حيث قد نجد اللحم والمأوى» .

فرد عيسى على توما قائلا : « لقد قُدتكم إلى الذُّرى عندما كنتم جوعى ، ولقد هبطت بكم السهول وأنتم أشد جوعاً ؛ ولكني لا أستطيع أن أمكث بينكم هذه الليلة ، فإني راغب فى أن أظل وحيداً . »

وهنا خطا سمعان بن يونا إلى الأمام وقال : لاَ تَدعْنا نُعانِ العودة وحدنا فى الظلام ، وأنعم علينا بالبقاء معك هاهنا فوق هذا المنعطف ؛ إن الليل لن يتلبّث وأنت معنا ، وإن ظلاله لن تتخلّف ، وما أسرع ما يطالعنا الصباح إن ارتضيت البقاء بيننا .

فأجاب عيسى قائلا : « فى هذه الليلة ستأوى الذئاب إلى أوْجارها ، وستهجع طيور الفضاء فى أعشاشها ، أما ابن آدم فلن يجد على الأرض مُتكأً لرأسه ، والآن خلّونى وحيداً ، فهذى هى رغبتى .

وإذا طلبتمونى فستجدوننى مرة أخرى عند البحيرة حيث وجدتكم . »

وهنا مضينا عنه مبتعدين بقلوب يثقلها الهمّ ، إذ لم تكن بنا رغبة فى أن نتركه .

وما أكثر ما تلبّثنا نُدير إليه وجوهنا متطلعين إليه ، فرأيناه مهيباً فى وُحدته وهو يتجه صوب المغرب ، إلاّ يهوذا الأسخريوطى ، فكان هو وحده بيننا الذى لم يدر إليه وجهه ، ليتطلع إليه فى وحدته .

ومنذ ذلك اليوم أصبح يهوذا متجهّما معتزلا ، وحدست أنّ ثمة خطراً يكمن بين محاجر عينيه .



حنة أم مريم

هنا فى الناصرة، وفى شهر يناير ، ولد عيسى — ابناً لبنتى — ولقد هبط علينا ليلةَ مولده نفر من الشرق جاءوا زائرين، وكانوا من الفرس أتوا إلى يِزْرَعيل بقوافل مَدْين فى طريقهم إلى مصر .

وحين لم يجدوا مكاناً فى النُّزل قصدوا إلينا يلتمسون عندنا مأوى .

وبعد أن رحّبت بهم قلت : لقد أنجبت ابنتى الليلة وليداً ، وفى يقينى أنكم ستغفرون لى قصورى إذا لم أوّفكم حقكم على ربة البيت .

هنالك شكروا لى استضافتى إياهم ، وبعد أن فرغوا من تناول العشاء ،

قالوا لى : هل لنا فى أن نرى الوليد ؟

وكان ابن مريم جميل الطلعة ، وكانت هى أيضاً مليحة حسناء .

وعندما شاهد الفارسيون مريم وطفلها أخرجوا من حقائبهم شيئاً من الذهب والفضة ، والمرّ والبخور ، وألقوه كله تحت قدمى الرضيع .

ثم ركعوا وصلّوا بلغة غريبة لم نفهمها .

وعندما قُدتهم إلى غرفة النوم ، التى هُيّئت لهم ، كانوا يسيرون وكأنهم خُشَّع لما شاهدوه .

وما كاد الصباح ينبلج حتى خلّفونا ومضوا فى الطريق المُفضى إلى مصر .

ولكنهم عند الفراق تحدثوا إليّ قائلين : إن الصبى لم يتجاوز بعدُ من العمر يوماً واحداً ، ولكنا على ذلك قد رأينا نور إلهنا فى عينيه، وابتسامة الربّ فوق شفتيه . ونحن طالبون إليك أن تَرْعَيْه حتى يبلغ أن يرعاكم أجمعين .

وما إن فرغوا من حديثهم حتى اعتلوا نياقهم ، وما وقع لنا عليهم نظر بعدُ .

ولقد بدت مريم فى غمرة من العجب والدهشة طغت على فرحتها بابنها .

وما أكثر ما كانت تطيل النظر إلى طفلها، ثم تولى وجهها- قبل النافذة وتحملق فى الأفق البعيد ، وكأنها تتخيل الرؤى .

وكان ثمة بون بين قلبها وقلبي .

وشبّ الطفل ، يكبر جسمه وتقوى روحه على نحو لم نعهده فى الأطفال : كان يحب الوحدة ، صعب المراس ، لا يسلم قياده لأحد . وما قدرت يوماً أن أمسّه بيدى ، ومع هذا فقد اجتمع أهل الناصرة كلهم على حبه ، ولم يكن سر ذلك ليخفى عليّ .

وما أكثر ما كان يأخذ طعامنا ليعطيه للسابلة ، وما أكثر ما كان يمنح الأطفال الآخرين ما أعطيه إياه من حلوى قبل أن يتذوقها فه .

وما أكثر ما كان يتسلق الأشجار فى بستانى، يجمع الفاكهة ، ولكن لا ليأكلها هو .

ولقد كان يسابق خلانه عَدْواً، وإذ كان أسرعهم خطواً فلقد كان يتريّث قليلا عساهم أن يبلغوا الغاية قبل أن يبلغها هو .

ولقد كان يقول لى فى الحين بعد الحين ، وأنا أقوده إلى فراشه :

« ألا قولى لأمى ولغير أمى: إن الذى ينام منى هو جسدى وحده ، ولكن روحى ستظل معهم إلى أن تهتدى أرواحهم إلى الصباح الذى أريد . »

كم من كلمات معجزة نطق بها فى صباه ، ولكن أنّى لى أن أتذكرها وقد بلغتُ من الكِبَر عتيّاً ؟

والآن يقولون لى : إن عينى لن تكتحل بعدُ بمرآه ، ولكن أنّى لى أن أصدق ما يقولون ؟

فما زلت أحسّ ضحكاته، وأستمع إلى صوت عَدْوه حول بيتى ، وكلما قبّلت خد ابنتى تتأرّجُ ريحه العطرة فى قلبى ، وتتمثل لى صورته وكأنها تملأ ذراعى . . .

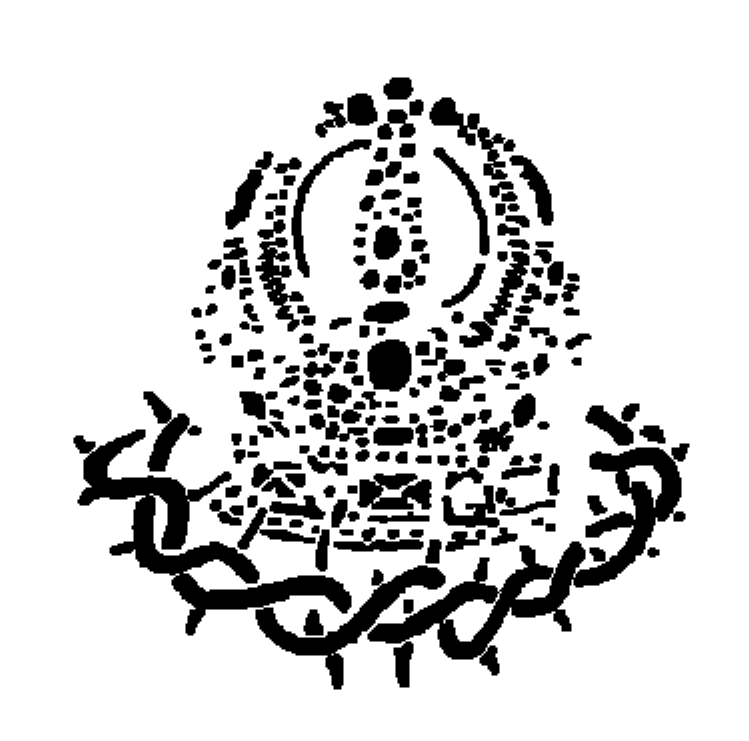
ولكن أليس غريباً ألا تتحدث إلىّ ابنتى عن ابنها البكر ؟

لقد كان شوقى إليه يغلب شوقها فى بعض الأحيان، وعلى حين كانت

تبدو جلدة مع النهار أشبه شيء بتمثال من البرونز كان فؤادى يذوب حسرة وتجرى دموعى جداولَ .

لعلّها على علم بما لم أعلم .

ألا ليتها تحدّثنى بما تعلم !



آصاف الشهير بخطيب صور

ماذا أنا قائل عن حديثه ؟

ربما كانت لمحة من لحاته تضفى على كلماته قوة تلفت إليه رؤوس سامعيه .

ولقد كان مليحاً يحكى نورُ محياه نورَ النهار .

وكان الرجال ، وكذلك النساء، أكثر شغفاً بالنظر إليه منهم إلى الاستماع إلى حديثه .

وكان فى الحين بعد الحين يرسل الكلمات فى قوة وكأنها روح ، وكان لهذه الروح سلطان على من يسمعونه .

لقد استمعت فى شبابى إلى خطباء رومه وأثينا والإسكندرية ، ولكن الفتى الناصرى كان يختلف عنهم .

كانوا يُضفون على كلماتهم مسحة من الجمال تفتن الآذان ، وكنت إذا استمعتَ إليه طار عنك فؤادك ، يطوِّف جائلا فى آفاق لم يشهدها من قبل .

وكان إذا روى قصة أو ضرب مثلا ، لا عهد للناس بهما فى سوريه ، فكأنه يغزلهما من الفصول ، كما يغزل الزمن السنين والأجيال .

وقد يبدأ قصة له بقوله : « مضى الحارث قُدُماً صوب حقله لنشر بذوره » .

أو بقوله : « يُحكى أن ثَرياً كان يملك الكثير من الكروم » .

أو بقوله : « أحصى راعٍ غنمه عند الغروب فعرف أن إحداها لم تعد » .

وكانت تلك الكلمات تَرُد مستمعيه إلى نفوسهم الفطرية ، وإلى الغابر من أيامهم .

فنحن — في قلوبنا — جميعاً حرّاث ، وكلنا نحبّ الكرمة ، وفي مراعي ذاكرتنا نجد راعياً وقطيعاً وشاة مفقودة .

وهناك سِكّة المحراث ومعصرة الكروم وبَيدر الطاحون .

لقد كان يعرف مصدر ذاتنا القديمة منذ الأزل ، والخيط الموصول الذي هو سَدَى نسيجنا .

كان خطباء الإغريق والرومان يتحدّثون إلى جمهورهم عن الحياة كما تبدو لفكرهم .

وكان الناصري يتحدّث عن شوق يقيم في الوجدان .

كانوا يرون الحياة بعيون لا يزيد صفاؤها على صفاء عيونكم وعيني إلاّ قليلاً ، وكان هو يرى الحياة بنور الله .

وكثيراً ما خلْتُ أنه كان يتحدث إلى الجموع كما يتحدث الجبل إلى السهل .

وفي حديثه كانت ثمة قوة لم يُؤْتَها خطباء أثينا وروما .

مريم المجدلية

كان ذلك فى شهر يونيه عندما شاهدته للمرة الأولى، وكان يسير فى حقل القمح وقد انتحى جانباً ، بينما كنت أخطر بين وصيفاتى .

كان وقع خطاه يخالف وقع خطى غيره من الرجال ، وكان فى حركته غريباً عمّن رأيت .

فما رأيت الرجال يُغذّون السير على الأرض مثل ما كان يفعل هو .

وإلى اليوم لم أتبين أكان يخبّ فى سيره أم يتمهل .

وأشارت وصيفاتى بأصابعهن إليه ، وأخذت كل واحدة منهن تهمس فى أذن الأخرى فى حياء .

أما أنا فقد تلبّثت لحظة ورفعت يدى ألوح له مُحيّية ، غير أنه لم يُقبل علىّ بوجهه ولم ينظر إلىّ ، ولقد كرهته فحقدت عليه .

وانطويت على نفسى ،وأحسست ببرودة تتملكنى كأنى فى مهب عاصفة ثلجية ، وأرعدت فرائصى .

وفى تلك الليلة رأيته فى أحلامى ، وقيل لى فيما بعد : إنى كنت أصرخ فى نومى، وإنى لم أهدأ فوق فراشى .

وما رأيته بعدُ إلاّ فى شهر أغسطس من خلال نافذتى ، وكان يجلس فى ظل شجرة السّرو تجاه حديقتى ، وكان ساكناً كأنه قُدّ

من حجر ، كتمثال من تماثيل أنطاكية أو غيرها من مدن الشمال .

وجاءت جاريتى المصرية لتقول لى : لقد ظهر هذا الرجل هنا مرة ثانية . إنه يجلس هناك تجاه حديقتك .

فتطلعت إليه واضطربت نفسى فى أعماقها . . . فقد كان جميلا .

كان ذا جسد فريد ، ولقد خيل إلىّ أن بين أجزاء جسمه عشقاً متبادلا .

وهنا ارتديت ثوباً من الحرير الدمشقى وتركت بيتى أقصد قصده .

ترُى أكانت هى وحدتى التى دفعتنى إليه أم هى ريحه العطرة التى جذبتنى نحوه ؟

أكان نَهَمٌ فى عينى إلى الُحسْن ، أم كان جماله هو الذى خطف بريق عينى ؟

لست أدرى من هذا شيئاً إلى وقتى هذا .

لقد سرت نحوه فى ثيابى بشذاها العطر ونعلى الذهبية التى أهدانى إياها القائد الرومانى . . وعندما أدركته قلت : عِمْ صباحاً .

قال : « عِمِى صباحاً يا مريم . »

ونظر إلىّ يفحصنى بعين ثاقبة تنفذ من الحجب لم أعرفها لرجل قبله .

وفجأة خِلْتُنى عارية أمامه فأطرقت حياء، مع أنه لم يزد على قوله : « عِمِى صباحاً يا مريم » .

وهنا قلت له : هلا أتيت إلى دارى ؟

فقال : « أولست حقًا فى دارك ؟ »

وما دريت ما كان يرمى إليه عندها ، ولكنى دريته الآن .

وقلت : هلا شاركتنى خبزى ونبيذى ؟

فقال : « نعم يا مريم ، ولكن ليس الآن . »

ليس الآن . ليس الآن . هكذا قال .

كان صوت البحر فى هاتين الكلمتين . . وكذلك صوت الريح والشجر . وعندما قالهما لى ، تحدثت الحياة إلى الممات .

فلا إخالك يا صديقى تجهل أننى كنت فى عداد الأموات ، إذ كنت امرأة قد طلّقتْ روحها .

كنت أعيش بعيدة عن هذه الذات التى تراها الآن . كنت رهن إشارة كل رجل غير أنه ما تملّكنى رجل . وكانوا يدعوننى الساقطة ، وينادوننى بالمرأة التى قد استحوذ عليها شياطين سبعة . . كنت ملعونة وكنت محسودة .

ولكن ما كادت عينا فجره تلتقيان بعينى حتى توارت نجوم ليلى ، وأصبحت مريم . . . مريم فحسب . امرأة قد انفصلت عن الأرض التى عاشت عليها لتجد نفسها فى أفق جديد .

وثانية قلت له : تعال إلى دارى فشاركنى الخبز والنبيذ .

فقال : « لمَ تطلبين إلىّ أن أكون ضيفك ؟ »

وقلت ، وكأن كل ما فى جسدى من تراب وما يلابسه من روح يدعوه إلىّ : لقد ضرعت إليك أن تلمّ بدارى .

وهنا نظر تجاهى ، ينعكس إلىّ نور فى عينيه كنور النهار فى رابعته وقال :

« ما أكثر محبيك ، ولكنك لن تجدى غيرى لك حبيباً .

غيرى من الرجال يحبون أنفسهم فى وصلك ، أما أنا فأحبك لنفسك.

غيرى من الرجال يرون فيك جمالا سيذبل قبل أن تذبل سنوهم ، أما أنا فأرى فيك جمالا لن يذبل ولن يبيد .

ولسوف يتطلع هذا الجمال ، حين تبلغين خريفك ، إلى نفسه فى المرآة فى غير ما خوف ولا وجل . . . وفى غير ما هلع ولا أسى .

أنا وحدى أحب فيك ما لا يراه سواى » .

ثم أضاف فى صوت خفيض :

« ارحلى الآن ، فإن كانت شجرة السّرو هذه شجرتك ، ولا تريدين لى أن أجلس فى ظلها ، فسأمضى إلى سبيلى . »

فاستصرخته وقلت : تعال إلى دارى أيها السيد ، فعندى بخور سوف أحرقه ليشيع فى الدار أريجُه ، وعندى إناء من فضة سوف أهيئه لغسل قدميك ، أنت غريب ، ولكنك فينا غير غريب : إنى أهيب بك أن تلمّ بدارى ..

وهنا انتصب قائماً وخفض بصره يتطلّع إلى الحقول وابتسم ثم ثنّى يقول :

« إن الرجال جميعاً يعشقون فيك أنفسهم ، أما أنا فأعشق فيك نفسك . »

ومضى يسير مبتعداً .

وما عرفنا غيره يخطو خطوه فى سيره .

تُرى أكانت نسمة انبعثت من حديقتى ولّت صوب المشرق ؟

أم كانت ريحاً هوجاء تهزّ الأشياء جميعاً من أصولها ؟

لست أدرى .

شيئاً واحداً أدريه :

فى ذلك اليوم انطوت بغروب عينيه نار الحقد الكمين فى نفسى ، وصرت امرأة ، وصرت مريم ، مريم المجدلية .



فيلمون الصيدلانى اليونانى

عاش الناصرى بين قومه شيخاً للنطاسيين .

ولم يكن غيره يعرف الكثير الذى وعاه هو عن الأجساد وعناصرها وخواصها . وكم من مرضى برئوا على يديه من أمراض استعصت على الإغريق والمصريين . ولقد قالوا : إنه كان يعيد الموتى إلى الحياة . وسواء أصح هذا أم كان غير صحيح فهو سرّ إعجازه ، فليس إلى غير الذى يقوم بجليل الأعمال يُعزى أجلّها .

ويقال فيما يقال : إن عيسى زار الهند وبلاد ما بين النهرين ، وإن الكهنة فى تلك البلاد قد أطلعوه على ما يعلمون من أسرار تتصل بالأجسام . وقد يكون ما أوتى عيسى من علم حول هذا مردّه إلى الآلهة لا إلى هؤلاء الكهنة .فلقد عرف عيسى فى اللحظة القصيرة ما ظل أجيالا متلاحقة غير معروف للناس . وكذلك يمسح « أپولّو » بيده على القلب الفارغ فيُنطقه بالحكمة .

ما أكثر ما تفتّحت أبواب السماء لأهل طيبة وأهل صور . ولكن ما أكثر ما تفتّحت أبوابٌ كانت موصدة أمام هذا الرجل . فلطالما نفذ إلى هيكل الروح — أى الجسد — فتعرّف تلك الأرواح الشريرة التى



تجتمع على هدّ كياننا وتعويق نموّها ، كما تعرّف الأرواح الخيّرة التى تنسج كياننا .

وأكاد أظن أنه بقوة الدّفع والمقاومة كان يشفى المرضى ، ولكن على نحو لم يَخْبُرْ خُبْرَهُ فلاسفتنا ، فلقد كان يباغت الحمّى بلمساته النّديّة فترتدّ مولّية .

ولقد كان يباغت أعضاء الجسم المتصلّبة بتلك الأناة وهذه الرزانة اللتين عُرفتا له فتنقاد له مستسلمة إلى برء وعافية .

وكان يتحسّس ماء الحياة حين يغيض معينُه فى غضون لحاء الشجر الذابل .

ذلك شيء كان إليه ، يتميّزه بأصابعه ولا علم لى به .

وكان يتبيّن جوهر الصُّلب قد علاه خَبَث الصدأ فيزيل عن متن السيف خبثه ويُعيد إليه لألاءه . . .

كان هذا إليه وحده . . .

* * *

وأحياناً إخال أنه كان لا يغيب عن سمعه دبيب الألم فى جسم كل حيّ تُشرق عليه الشمس .

كان عند ذاك يُقيله من عثرته ، وينفخ فيه من روحه ، لا بما أوتى من علم فحسب ، ولكن بأن يدلّه على مكان القوة من نفسه لينهض ويبلغ العافية .

وهو طبيباً لم يُشْغَل بنفسه كثيراً ، وإنما شغلته أرضه بدينها وشئون الحكم فيها .

وإنى على هذا لشديد الأسف ، فما أولانا بادئ ذى بدء أن نحرص على سلامة الأبدان .

ولكنّا نرى هؤلاء السوريين — حين يتنزل بهم المرض — أكثر شُغُلا بالجدل منهم بطلب الدواء .

وإنها لحسرة أن نرى كبير أطبائهم يؤثر أن يكون خطيباً فى الأسواق على أن يحفل بطب نفسه .



سمعان
الذى يقال له بطرس

على شاطئ بحيرة الجليل رأيت عيسى السيد الهادى ، وكان ذلك للمرة الأولى .

وكان إلى جانبى أخى أندراوس نطرح شباكنا فى الماء والموجُ شديد عال ، فما انطوت شباكنا إلا على القليل من السمك ، وإن قلبينا لمثقلان همًّا .

وعلى حين بغتة طلع علينا عيسى وكأنه قد استوى فى مكانه لساعته على صورته وهيأته ، فما وقعت عليه العيون وهو يقصد قصدنا . وهتف باسمينا وقال : « اتبعانى أهدكم إلى الخليج الذى يزخر بأسماكه . »

وما كدت أرنو إلى محيّاه حتى أفلتت الشبكة من بين يدى واشتعل قلبى وجدًا حين عرفته .

والتفت إليه أخى أندراوس يقول : ليس من خليج على هذه الشطآن إلا ونحن به عالمان . وإنّا فوق ذلك لنعلم أن يومًا كيومنا عاصفًا تلوذ فيه الأسماك بأغوار لا تبلغها شباكنا .

ويجيبه عيسى : « فلتتبعانى إلى شاطئ البحر الأعظم وسأتخذكما

صائدين لبنى الإنسان ، ولن تفرغ لكما شبكة أبداً . »

فتركنا القارب والشباك ومضينا فى إثره .

ورأيتنى منقاداً إليه فى قوة لا أتبينها كانت تلزم ظله . وسرت قريباً منه ، وقد انبهرت منى الأنفاس وامتلأ القلب عجباً . وكان أخى أندراوس يسير وراءنا مذهولا فى حيرة .

وبينا كنا نسير على الرمال تمالكت وقلت له : سيدى ، إنى وأخى سنتبع خطاك ، وأينما توجهت سنمضى معك . وإذا رأيت أن تلمّ بنا فى دارنا هذه الليلة ، فستكون تلك الزيارة لنا نعمة وبركة . إن دارنا ليست فسيحة وليست عالية البنيان ، ولن تجلس إلاّ إلى مائدة هينة يسيرة ، ولكنك حين تحلّ كوخنا فسوف يستحيل فى أعيننا قصراً ، وإذا شاركتنا خبزنا فسيغبطنا أمراء الدنيا على وجودنا بين يديك .

وقال عيسى : « أجل ، سأكون ضيفكم الليلة . »

وامتلأ قلبى فرحاً ، وسرنا وراءه فى صمت إلى أن بلغنا دارنا . وحين وقفنا على عتبة الباب قال عيسى : « سلام على هذه الدار ، وسلام على ساكنيها . »

ثم دخل البيت ونحن فى إثره .

ومثلتْ بين يديه زوجتى وأمها وابنتى ، وطفقن يمجدنه ، وركعن أمامه وقبّلن طرف كمه ، وقد انعقدت ألسنتهن دهشة حين رأين المختار الحبيب وقد حلّ بنا ضيفاً ، فقد سبق لهن أن شاهدنه عند نهر

الأردن عندما نادى به يوحنا المعمدان أمام الناس .

وفى الحال بدأت زوجى وأمها تعدّان طعام العشاء .

وكان أخي أندراوس رجلا خجولا ، غير أن إيمانه بعيسى كان أعمق من إيمانى .

أما ابنتى التى لم تتجاوز حينذاك الثانية عشرة فقد وقفت تجاهه ممسكة بثوبه كأنها تخشى أن يفارقنا ويخرج ثانية إلى ظلام الليل ، فتشبثت به تشبث الحمل الضال براعيه بعد أن عاد إليه .

وعندئذ جلسنا إلى المائدة ومدّ يده إلى الخبز يكسره ، وصب النبيذ والتفت إلينا قائلا : « هيا يا صاحبيّ ، أكرمانى بمشاركتكما لى هذا الطعام كما أكرمنا الله بمنحنا إياه . »

فاه بتلك الكلمات قبل أن يمدّ يده إلى كسرة ، فقد شاء أن يأخذ بسُنّة قديمة تجعل من الضيف المكرّم ربًّا للدار .

وإذ جلسنا معه حول المائدة ، خلنا أننا جلوس فى وليمة الملك الأكبر .

أما ابنتى پترونيلا ، وكانت بعدُ غضةً غريرة ، فأنشأت تحدق فى وجهه وتتبع حركات يديه . ورأيت سحابة من دموع تغشى عينيها .

وعندما ترك المائدة تبعناه وجلسنا حوله فى خميلة العنب .

وتحدث إلينا فأصغينا ، وإن القلوب التى بين الضلوع لتخفق خفق الطير . وتكلم عن البعث ، وعن أبواب السماء وهى تنفتح ، وعن الملائكة تهبط حاملة السلام والبهجة الجميلة للبشر أجمعين ، وعن ملائكة تصعد

إلى العرش حاملة أشواق الناس وحنينهم إلى العليّ الكبير .

ثم نظر فى عينيّ وقد نفذت نظراته إلى أعماق قلبى وقال :

« لقد اخترتك واخترت معك أخاك ، ولا منأى لكما عن ملاحقتى . لقد عملتما وكدحتما ، وما أثقل ما تحملتما ! والآن سأمنحكما الراحة ، فلتحملا عنى نيرى ، ولتتعلما عنى فى قلبى يكمن السلام ، وستجد روحاكما الراحة والاطمئنان فى العودة إلى موطنكما الأزلى . »

وعندما قال هذا ، نهضت أنا وأخى واقفين أمامه وقلت له : أيها السيد ، سنمضى معك إلى أطراف الأرض . وسنحمل معك حملنا راضين مطمئنين وإن كان كالجبل ثقلا ، وإذا سقطنا على جانب الطريق فسنعلم أننا سقطنا على طريق السماء . . . وسنكون من الراضين .

وتكلم أخى أندراوس وقال : أيها الهادى ، سنكون خيوطاً فى يديك وعلى نولك ، فلتنسجنا ثوباً إن أردت ، فسنكون قطعة فى ثوب العليّ المتعال .

ورفعت زوجتى وجهها إليه ، وكانت الدموع تنهمر على وجنتيها ، وتكلمت فى فرح قائلة : بورك فيك يا من أتيت باسم الله ، وبورك فى بطن حملك وثدى أرضعك .

بينما جلست ابنتى التى لم تتجاوز من العمر اثنى عشر عاماً عند قدميه واستقرت قريباً منه . أما أم زوجتى فلم تنبس ببنت شفة ، وظلت تبكى فى صمت وسكون حتى ابتل دثارها بالدموع . وعند ذلك تقدم منها عيسى ورفع وجهها إلى وجهه وقال لها :

« أنت أم لهؤلاء جميعاً . وما بكيت إلا من فرط سعادتك ، ولسوف أستبقى دموعك هذه فى ذكرى . »

وهنا كان القمر الأزلى قد تجاوز الأفق ، وتطلع عيسى إليه لحظة ثم التفت إلينا قائلا :

« لقد امتد بنا الوقت . فلتأووا إلى فراشكم ، وعسى أن يرعى الله نومكم . وسأبقى أنا هنا فى هذه الخميلة إلى الفجر . لقد ألقيت شباكى اليوم وصدت رجلين . وإنى بذلك لراض ، والآن عموا مساء » .

وهنا قالت أم زوجتى : ولكنا قد أعددنا لك فراشك فى الدار ، وإنى أضرع إليك أن تدخل وتستريح .

فأجابها قائلا :

« لعمرى إنى أطلب الراحة حقاً ولكن لا فى ظل سقف، فلتدعونى أرقد هذه الليلة فى ظلة تنسجها الأعناب والنجوم » .

وأسرعت لتأتى بالحشية والوسائد والأغطية ، فابتسم وقال :

« انظرى . إنى سأرقد فى فراش قد هيئ مرتين . »

وعندئذ تركناه ودخلنا الدار ، وكانت ابنتى آخر من دخل . وظلت عيناها عالقتين به إلى أن أغلقتُ الباب .

هكذا كانت معرفتى الأولى بالسيد الهادى .

وعلى الرغم من أن ذلك كان منذ سنين كثيرة ، فلا يزال ماثلا وكأنه حدث اليوم .

قيافا الكاهن الأكبر

إذا تحدثنا عن ذلك الرجل عيسى فعلينا ألا نهمل حقيقتين بارزتين : التوراة وما تُلزمنا به من رعاية لها ، وهذه المملكة وواجب رومه فى الدفاع عنها .

ولننظر إذن : لقد كان هذا الرجل من المناوئين لنا ولرومه معاً .

فلقد بلبل عقول الدّهماء من الناس ، وساقهم سَوْق الساحر ليكونوا حرباً علينا وعلى قيصر .

وكان موالىّ — رجالهم ونساؤهم — إذ يستمعون إليه يخطبهم فى الأسواق ينقلبون عُصاة ناقمين .

ولقد أبَق نفر منهم ، ولاذوا بالفيافى والقفار ، مذ طلع علينا هذا الرجل .

وجدير بنا ألاّ ننسى أن التوراة هى مرجعنا الذى نرجع إليه ، ومعقلنا الذى نعتزّ به ونقوى .

وما كان لرجل أن يَغْلِبَنا على أمرنا ونحن نملك ما نضرب به على يديه .

وما كان لرجل أن يسلُبنا بيت المقدس ما بقيت لنا أسوارها العتيقة بأحجارها قائمة كما خلّفها داود .

وإذا قُدِّر لما بذَرَ إبراهيم أن يعيش حقًّا ويؤتى ثمره ، كان حتماً أن تبقَى هذه التّربة نقية طاهرة .

فلقد كان ذلك الرجل عيسى من المدنّسين المفسدين ، ولقد رددنا كيده فى نحره بما نملك من ضمير واع لا يدنّسه شك ، ولسوف نردّ كيد هؤلاء جميعاً فى نحورهم ، أولئك الذين يبغون بشريعة موسى ذلة ومهانة ، ويحاولون أن يذكروا تراثنا المقدس بسوء .

ولقد علمنا نحن وبيلاطس البنطى ما فى نفس هذا الرجل من شر ، وكان من الحكمة أن نجعل له نهاية .

ولسوف أعمل على أن ينتهى أتباعه إلى ما انتهى إليه ، وعلى أن يؤول رَجْع كلماته إلى سكون .

إذا أردنا لليهودية أن تعيش فحتّم أن تعنو لها جباه المعارضين حتّى تَلْصَق بالرغام .

ألاَ لاعشتُ حتّى أرى اليهودية تموت ، إذن لعفرت رأسى الأشْهب بالرماد كما فعل النبى صمويل ، ولنزعت عنى رداء هارون ، ووضعت على جسدى خَشِن الرداء ، حتّى يدركنى الموت إلى الأبد .



حنّة
زوج قهرمان هيرودس

ما بنّى عيسى بامرأة قط ، على حين عرفته النساء صديقاً . عرفهن كما يجب أن يُعرفن : صُحبة مستطابة حلوة .

كما أحبّ الأطفال هذا الحب الذى هم به جديرون ، عن إيمان وإدراك .

وكنت تتمثّل فى بريق عينيه أباً وأخاً وابناً .

ولربما أمسك بالطفل يضعه على ركبتيه وهو يقول : من مثل هذا تستمدون قوتكم وحريتكم ، وبمثل هذا يكون لكم ملكوت الروح .

ولقد حدّثوا أن عيسى لم يُلق بالاً لشريعة موسى ، وأنه كان يغلو فى العفو عن ساقطات أورشليم وغيرها من البلدان المحيطة .

ولقد كنت أنا حينذاك محسوبة من بين الساقطات ، إذ كنت أهوى رجلاً لم يكن لى زوجاً ، وكان صدّوقياً لا يؤمن بالسبت ولا باليوم الآخر .

وذات يوم اقتحم الصدّوقيون علىّ منزلى ، وكان عشيقى إلى جوارى ، فأمسكوا بى واحتجزونى بينما أفلت عشيقى تاركا إيّاى .

وعندها قادونى إلى ساحة السوق ، حيث كان عيسى يعلّم الناس ،

وكان منُاهم أن يقفوا بي بين يديه ليستبينوا ما عنده ولينصبوا لى شَركا .

ولكن عيسى ما دانني بشيء ، بل أنحى بالخِزْى على هؤلاء الذين سعوا ليلصقوا الخزى بى ، وعنّفهم .

ثم طلب إلى أن أمضى لسبيلى .

وما فتئتْ أن استحالت فاكهة الوجود حلوة المذاق فى فمى ، وكانت لا مذاق لها ، وسرى أريج الزهور فى خياشيمى ، وكانت لا أريج لها فى شمىّ ، وعشت امرأة قد طرحت عنها ذكرياتها الشائنة ، وتحرّرت منها . . لن تنكّس الرأس خجلا بعد يومها هذا .



رفقة
عروس قانا

حدث هذا قبل أن يذيع اسمه بين الناس .

وكنت فى حديقة أمى أشذّب شجيرات الورد حين وقف بإزاء بابنا يقول :

« هل لك فى أن تعطينى من بئركم ماء ؟ »

فجريت وأتيت بالوعاء الفضى ثم ملأته ماء وقطرت فيه بضع قطرات من قارورة الياسمين .

فعبّ الماء عبًّا ، ومضى رضىّ النفس .

ثم أخذ ينعم النظر فى عينى وهو يقول :

« لسوف تحلّ بك بركتى . »

وما إن قال ما قال حتى أحسست كأن نفحة من ريح تسرى فى جسمى ، وإذا أنا غير هيّابة ولا خجلة .

فقلت له : أيها السيّد لقد خطبنى رجل من قانا ، مدينة الجليل . وسيبنى بى زوجى فى اليوم الرابع من الأسبوع القادم ، فهلاّ حضرت عرسى ، فيتشرّف زواجنا بحضورك ؟

فأجاب قائلا : « سأحضر ياطفلتى . »

وأذكر قوله حين قال « ياطفلتى » ، وهو لم يكن إلاّ فتى فى ريعان الشباب ، وكنت عندها أخطو إلى العشرين .

ثم مضى ينحدر فى سبيله ، ولبثت فى موقفى عند باب الحديقة حتى دعتنى أمى إلى أن أدخل الدار .

وفى اليوم الرابع من الأسبوع التالى حملونى إلى بيت العريس وأخذوا فى زفافى .

وحضر عيسى فى صحبة أمه وأخيه يعقوب .

وجلسوا إلى مائدة العرس بين ضيوفنا بينما أخذت صاحباتى من الفتيات ينشدن أناشيد العرس لسليمان الملك . وأكل عيسى من طعامنا وشرب من نبيذنا وكان يهشّ لى ولغيرى .

وقد ألقى بالا إلى الأغانى كلها ، أغنية ذلك الحبيب وهو يحمل محبوبته إلى خيمته ، وأغنية هذا الحدث حارس الكَرمة الذى أحبّ ابنة صاحب الكرمة ثم صحبها إلى دار أمه ، وأغنية هذا الأمير الذى التقى بفتاة تتسوّل فحملها إلى مملكته وتوّج رأسها بتاج آبائه ; وكان يبدو كأنه يصيخ السمع أيضاً إلى أغانى أخرى غيرها ، لم أستطع سماعها .

وعند غروب الشمس جاء والد العريس إلى أم عيسى وقال لها هامساً: لقد نفذ ما لدينا من نبيذ ، وما انتهى اليوم بعد . .

وسمع عيسى ما يهمس به فقال :

« إن الساقى ليدرى أنه ما يزال ثمة نبيذ . »

وكان ما قال حقّاً . فلقد بقى الضيوف ما بقوا والنبيذ الطيّب موفور لمن يشرب .

وسرعان ما أخذ عيسى فى الحديث إلينا ، فتحدّث عن عجائب الأرض والسماء ، وزهرات السماء التى تُشرق حين يجنّ الليل ، وعن زهرات الأرض التى تتلألأ عندما تختفى النجوم فى وضح النهار .

وأخذ يقصّ علينا القصص ويضرب لنا الأمثال، وإن لصوته لسحراً يلفتنا إليه، وكأننا بين يدى رؤى أنستْنا الكاس والطاس .

وفيما أنا أستمع إليه خيّل إلىّ كأنّنى فى بلد ناء لا عهد لى به .

وبعد قليل تقدم ضيف إلى والد عريسى يقول له : لقد حبست عنا خير ما عندك من نبيذ حتى نهاية الحفل . وهذا ما لا يفعله غيرك من المضيفين !

واعتقد الجميع أن عيسى قد أتى بمعجزة ، وأنهم سوف ينالون مزيداً من نبيذ عند ختام العرس أطيب من ذاك الذى كان فى أوّله .

ولقد خلت أنا أيضاً أن عيسى هو الذى أجرى النبيذ ، غير أنى لم أدهش ، فمن قبل استمعت إلى المعجزات فى نبرات صوته .

وفى الحقّ لقد ظلّ صوته بعد عالقاً بقلبى إلى أن وضعت أول وليد لى .

وما تزال حتى الآن ، وإلى يومنا هذا ، كلمة ضيفنا حديث قريتنا والقرى المحيطة .

وإنك لتسمع إليهم يقولون : كانت خمر عيسى النابعة من روحه أطيب نبيذ وأعتقه .



حكيم العجم فى دمشق

لا أملك أن أنبئ عما يخبئه الغيب لهذا الرجل ، كما لا أملك أن أحدث عما سوف ينال تلاميذه .

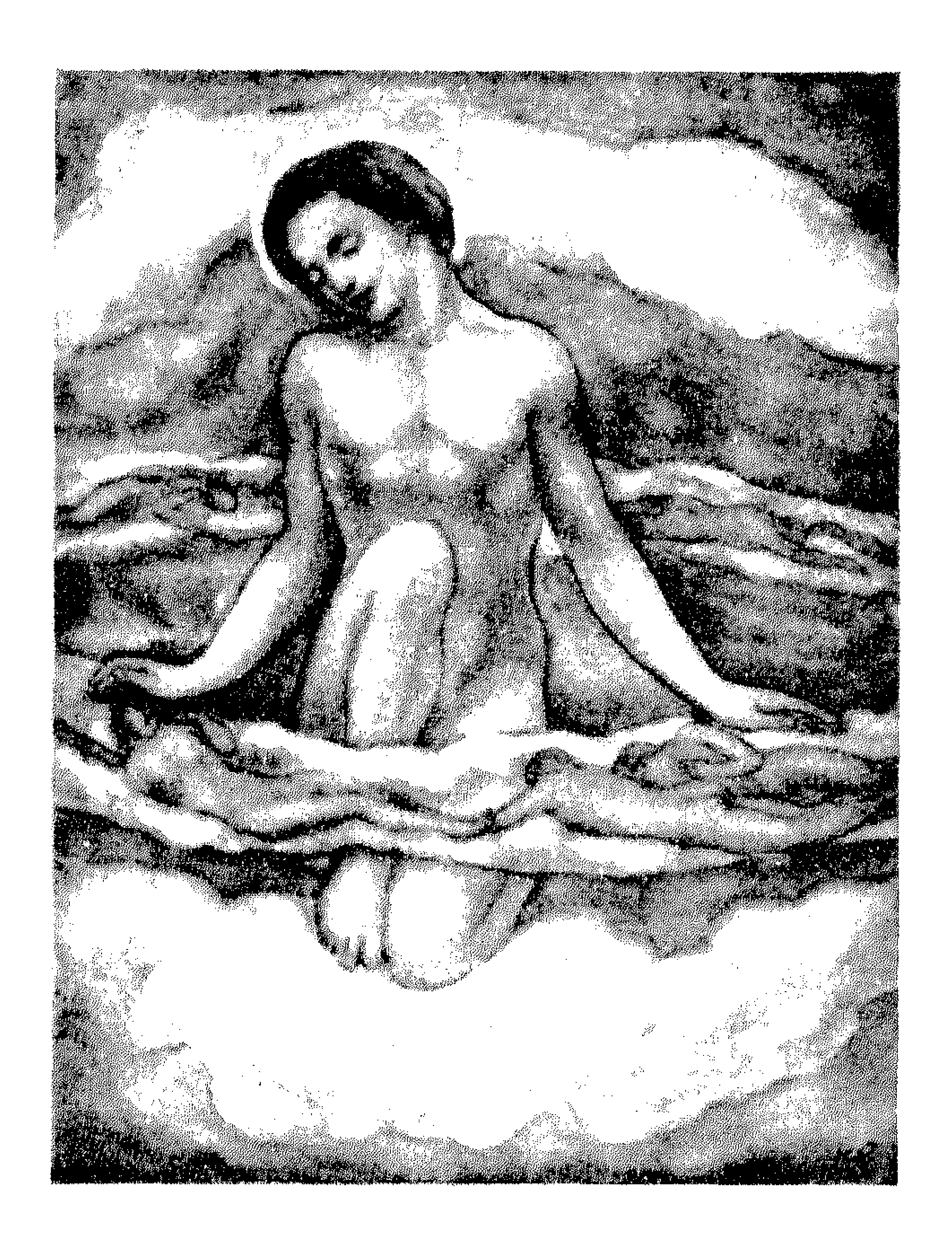
فليست البذرة التى تُجنُّها التفاحة فى جوفها إلاّ حديقة لا تُرى . وقد تقع هذه البذرة على صخرة صماء فإذا هى لا غناء فيها .

غير أنى على هذا أقول : إن الإله الأزلى لإسرائيل شديد البطش لا تأخذه رحمة .

وجدير ببنى إسرائيل أن يطلبوا إلهًا غيره : إلهًا رحيماً غفوراً يتجاوز عن سيئاتهم رأفة بهم ، إلهًا يتنزّل مع شعاع الشمس ويسرى على الطريق إلى غاياتهم ، ولا يجلس إلى الأبد فى مجلس القصاص يزن سيئاتهم ويقيس خطاياهم .

على بنى إسرائيل أن يعبدوا ربًّا لا يحمل حقداً ولا ضغناً ، ولا يذكر من نقائصهم إلاّ النزر اليسير ، ولا يقتصّ لنفسه منهم ولا من أحفادهم وأبناء أحفادهم .

وما أشبه الناس فى سوريه بغيرهم فى أنحاء العالم . فكل منهم يُنعم النظر فى مرآة فكره وعقله حيث يقع على معبوده ، فهو يصوّر أربابه وفق هواه ، ويعبد هذا الذى ينعكس عليه تصوّره . وفى الحق إن الإنسان



ليناجي حبّه الدفين رجاء أن يفيض فيشبع جماع رغباته .

وليس بعد النفس في الإنسان غَوْرٌ ، والنفس غور يناجي ذاته ، إذ ليس هناك صوت ثان يحدّث ، ولا آذان أخرى تسمع . ونحن في فارس نبصر وجوهنا في قُرص الشمس ، وتتراءى أجسادنا راقصة على ألسنة النار التي نُشْعلها على مذابح الهياكل . وهكذا نرى أن إله عيسى لن يكون غريباً على أتباع المسيح ، ولسوف يحقّق لهم ما يشتهون .

وقد ألقى أرباب مصر عن كواهلهم ما يحملون من أثقال ، وفرّوا إلى صحراء النوبة ليعيشوا أحراراً بين هؤلاء الذين لمّا تأسرهم بعدُ المعرفة .

وهاهم أولاء أرباب الإغريق والرومان يَغْرُبون بغُروب شمسهم . لقد كانوا أشبه ما يكونون بالناس ، فلم يستطيعوا أن يملئوا رُوح الناس بالنشوة .

أما الحرجات التي وُلد فيها سحرهم فقد اجتثّتها معاول الأثينيين والإسكندريين من الفلاسفة .

وفي هذه البلاد قد دُكّت الرُّبى دكًّا على أيدي المشرّعين في بيروت والأحداث من نُسَّاك أنطاكيه . وليس غير العجائز والمتهدّمين من الرجال يسعون إلى معابد أسلافهم ، ولا يَرجع ببصره إلى أول الطريق إلاّ المتعب المكدود حين يبلغ آخره .

ولكن عيسى ، هذا الرجل الناصري قد تحدّث عن ربٍّ هو من الجلال والإحاطة بحيث يشبه الناس كلهم ، وسع علمه كل شيء

فتعالى عن العقاب ، وفاض بالحب لمخلوقاته فتجاوز عن آثامهم .

ولسوف يجتاز إله الناصرى عتبات الدور ليلتقى أبناء الأرض ويجلس إلى مدفآتهم . ولسوف يكون لهم بركة تنضم عليها الجدران ، ولسوف يكون لهم نوراً ينير لهم الطريق .

ولكنى أدين بما دان به زرادشت ، أدين بالشمس فى السماء ، وبالنار على وجه الأرض ، وبالنور الذى فى الصدور ، وإنى بذلك لراض ، لا أطلب غير هذا ديناً .



داود
واحد من الأتباع

لم أكن أفقه ما تدلّ عليه عظاته ، ولا ما تشير إليه أمثاله ، إلى أن فارقنا ولم نعد نراه بيننا .

أجل ، فلقد عشت لا أعلم علمها إلى أن رأيت كلماته فى صورها الحيّة رأى العين ، وقد تشكّلت بأشكال الأجسام التى يزخر بها موكب الحياة . . مع الأيام .

ولتسمع إلىّ أحدّثك حديثى هذا : بينما كنت جالساً ذات ليلة فى منزلى أنعم النظر مفكراً مستذكراً كلماته وأفعاله ، علّنى أجمعها فى كتاب ، إذ اقتحم علىّ بيتى لصوص ثلاثة .

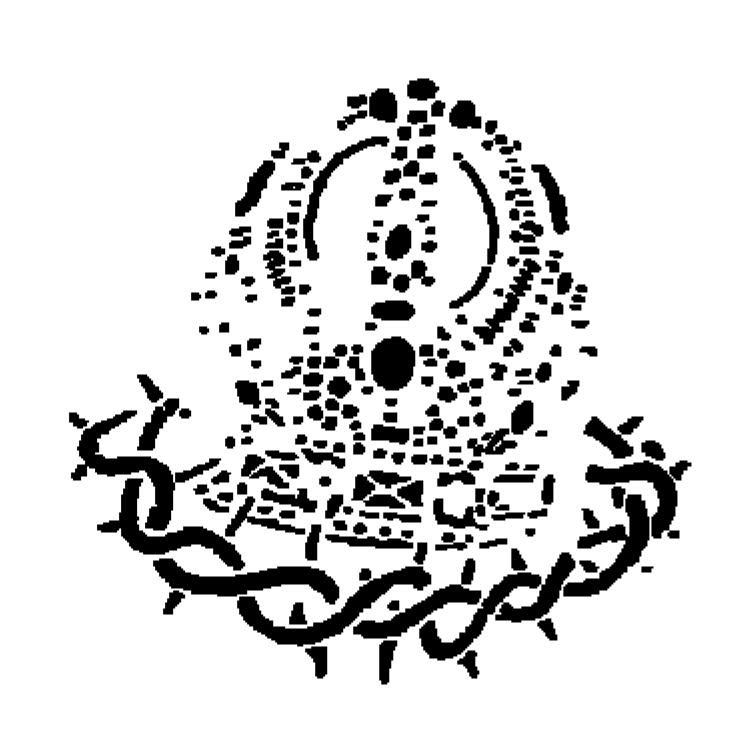
ولقد شغلنى الفكر فيما أنا آخذ فيه عن أن ألقاهم بسيف ، أو عن أن أقول لهم : ماذا جاء بكم إلى هنا ؟ مع علمى أنهم ما جاءوا إلاّ ليسرقوا متاعى .

وبقيت على ما أنا عليه أكتب ذكرياتى عن هادىّ ومُرشدى . وعندما خرج اللصوص عنى ذكرت قوله : « خلّ اللص ، وقد جاء يسرق منك ثوبك ، يسرق معه ثوبك الآخر . »

ولقد فهمت .

وإذْ جلست أدوّن كلماته ، لم يكن إنسان فى الوجود يستطيع أن يحول بينى وبين ما أفعل ، ولو كان جاء ليمضى بما أملك جميعاً .

وما أنا راغب عن حماية نفسى ونفيسى ، ولكننى أعلم أين يقع كنزى الأعظم .



لوقا

كان عيسى يحتقر المنافقين المرائين ويزرى بهم . وكان إذا غضب فكالعاصفة نكالا بهم ونقمة، وكأن صوته الرعد فى آذانهم رعبا وخوفا. ولقد دبّروا لقتله خشية منه وفزعا .

وكما لا تسعى الفئران إلا فى خبايا الأرض ، سعوا ليزلزلوا الأرض من تحت قدميه ، ولكنهم لم ينالوه بكيد .

وكان هو يسخر منهم ، فلقد كان يعرف حق المعرفة أن الله سوف يردّ عنه أذاهم ، وأنه لن يقع فيما يحيكون .

وكان ينظر فى مرآة يده ، فيرى الفاتر الضعيف والأعرج الثقيل الخطى ، كما يرى هؤلاء الذين يترنحون إعياء فيقعون على منعطفات الطريق ولما يبلغوا الذرى .

وكان يأسى لهؤلاء جميعا . وكم تمنّى لو أقالهم من عثرتهم ! واستوى بهم إلى مقامه ! وكم تمنى لو حمل عنهم أثقالهم ! بل كم تمنى أن يجعل من ضعفهم قوة بقوته !

وما دان الكاذبَ أو اللص أو القاتل كلَّ الدَّين ، بل كان يصبّ جام غضبه كله على المرائين بما تخفى وجوههم وما تستر أيديهم .

وما أكثر ما أنعمتُ النظر مفكراً فى ذلك القلب الذى وَسع جميع من خفّوا إليه من المفازات والمتاهات يلتمسون الأمن فى محرابه ، وإن ظل موصداً مختوماً عليه دون هؤلاء المُرائين وحدهم .

وفى يوم من الأيام بينا كنا معه خالين فى حديقه الرُّمان نأخذ قسطاً من الراحة قلت له : أيها الهادى ، إنك تمنح الآثم عفوك ولا تبخل عليه بعزائك ، وكذلك أنت مع الضعفاء والعاجزين ، لا تستثنى إلا المرائين وحدهم!

وإذا هو يقول لى :

«لقد أحسنت القول وأصبت الهدف حين دعوت الآثمين ضعافاً عاجزين ، وإنى أمنحهم عفوى على وهن أبدانهم وضعف أرواحهم . فما وقعوا فيما وقعوا فيه إلا بأوزار آبائهم التى حمّلوهم إياها ، أو بأطماع جيرانهم التى أثقلوهم بها .

ولكنى غير متجاوز عن المرائين ، إذ هم أنفسهم يُثقلون بنيرهم كاهل المخلص الأمين ، ومن سلمت طويته وسَلِس قياده .

وهؤلاء الضعفاء الذين تدعوهم آثمين ، مثلهم مثل صغار الطير التى لا ريش لها ، فتقع من أعشاشها . أما المرائون فهم الجوارح تقبع على الصخور لتنقضّ على فريستها .

الضعفاء قوم قد ضلّوا طريقهم فى المتاهات ، على حين لم يضلّ المراءون طريقهم فهم يعرفون أين يسيرون ، ولكنهم على هذا عابثون هازلون على الرمال وفى مهبّ الريح .

وإنى لهذا لا ألقاهم ولا أفسح لهم رحابى . »

وعلى هذا النحو مضى الهادى يتكلّم ، وما فهمت عنه يومها ، ولكنى اليوم جدّ فاهم .

ولقد قُدّر للمرائين بعدها أن يبسطوا أيديهم عليه وأن يدينوه. وكانوا فيما فعلوا يخالون أنهم على الحق . فلقد اتخذوا من شرعة موسى برهانهم عليه وحجّتهم ضده .

وكان هؤلاء الذين يعبثون بالشرائع مع مطلع كل شمس ، ويعبثون بها أخرى مع كل مغيب ، هم الذين قادوه إلى حتفه .



متّى

موعظة الجبل

فى يوم من أيام الحصاد دعانا عيسى ودعا معنا غيرنا من صحابه إلى التلال . وكانت الأرض عبقةً بشذاها ، أشبه شيء بابنة ملك فى حفل عرسها ، قد وضعت عليها ما تملك من حُلىً وجوهر ، وازّينت السماء وكأنها العريس .

وعندما بلغنا أعالى التلال وقف عيسى ساكنًا فى حرجة من أشجار الغار وقال :

« فلنقرّ هاهنا ، لا تشغلوا بالكم ، ودعوه رخيًّا ، وسوُّوا أوتار قلوبكم لتلقن عنى ، فإن عندى كثيراً مما سوف أحدّثكم به . »

وهنا افترشنا الأعشاب تُحيط بنا زهرات الصيف على اختلافها ، وقد جلس عيسى بيننا يقول :

« ما أسعد هؤلاء الذين صفت أرواحهم !

وما أسعد الذين لا يبيتون أسرَى ما يملكون ، لأنهم سوف ينعمون بالحرية !

وما أسعد الذين يذكرون الألم ، والذين حين يألمون يرقبون الراحة !

وما أسعد الذين يتضوّرون جوعًا ينشدون الحق والجمال ! فسيكون

لهم من جوعهم الخبز الذى يأكلون ، ومن ظمئهم الماء القَراح الذين يشربون !

وما أسعد ذوى الكرم والحلم ، لهم من كرمهم وحلمهم خير عزاء وسلوى !

وما أسعد الذين قد طَهُرت قلوبهم ، لأنهم سوف يكونون غير بعيد من الله !

وما أسعد الرحماء فإن الرحمة ستكون من نصيبهم !

وما أسعد الداّعين إلى السلم ، فإن أرواحهم سوف تسمو فوق الخُصومات وسوف يجعلون من ساحات العراك جنّات وبساتين !

ثم ما أسعد الذين يقعون فريسة لغيرهم ،فسوف يُؤْتَون خفة الخَطو ، وسوف يُرزقون أجنحة !

ألا فلتفرحوا ولتَستبشروا ،فقد وجدتم ملكوت السموات منكم قريباً .

لقد لقِى من سبقوكم ممّن تغنّوا بهذا الملكوت ما لقوا من اضطهاد وتعذيب ، ولسوف تلقون أنتم أيضاً هذا الاضطهاد وذلك التعذيب ، وفى هذا ما كان لكم من فضل وأجر .

أنتم ما على الأرض من مِلح ، فإذا ما فقد المِلح مذاقه ، فلن يَطيب للناس طعامهم الذى عليه تعيش القلوب .

أنتم النور الذى يضىء به الوجود ، فلا تَجعلوا هذا الضوء تحت

صاع أو مكيال ، بل خلّوه يسطع فوق الذُّرى لأولئك الذين يسعون إلى رحاب الله .

ولا تتهموا أنى جئتُ لأنسخ شرائع الكتبة والفرّيسيين ، فإن أيامى بينكم معدودة وكلماتى مُحصاة . وليس أمامى إلا ساعات كى أحقق شريعة أخرى وأكشف عن عهد جديد .

ولقد قيل لكم : لا تَقْتُلوا ، ولكنى أقول لكم : لا تغضبوا إلاّ أن تُدْفعوا إلى غضب :

ولقد عهد إليكم أسلافكم أن تأتوا بعُجولكم وحملانكم وطَيركم إلى الهيكل ، وأن تذبحوها على المذبح لعلّ رائحة شحومها تنال مشمّ الآلهة ، فترضى عنكم وتغفر لكم خطاياكم .

ولكنى أقول لكم : ليتكم تُعطون الله ما كان له فيها منذ الأزل .

وليتكم تُرضون ذاك الذى دون عرشه خلاء سحيق والفضاء بين ذراعيه .

بل عليكم أن تسعوا إلى إخوانكم تُسالموهم وتهادنوهم قبل أن تَسعوا إلى الهيكل ، ولتكونوا كرماء راغبين فى العطاء ، ينال منه جيرانكم ، فى نفوس أولئك قد شيّد الله هياكل لا تندثر ، وفى قلوبهم أقام مذابح لا تبيد .

ولقد قيل لكم إن العين بالعين والسن بالسن ، ولكنى أقول لكم : لا تناهضوا الشرّ ، فإن مناهضة الشر غذاء له يَهيجه ويُذْكيه .

الضعاف وحدهم هم الذين يقتصّون لأنفسهم ، والقوى النفس يعفو ويصفح ، وإنه لشرف لمن أُوذى أن يصفح :

فالشجرة المثمرة هى وحدها التى نهزّها أو نرميها بالحجارة لتقع على ما نقتات به .

فلا تُشغلوا بالغد ، بل أحرى بكم أن تتطلّعوا إلى اليوم ، فحسب اليوم ما يبدى لكم من معجزات .

ولا تَشْغَلَنْك نفسك بالتفكير فيها طويلاً وأنت تعطى ، بل فكّر فى العَوَز والحاجة ، لأن من يعطى سوف ينال هو نفسه من خالقه ، ولسوف يكون ما يناله أضعافاً مضاعفة .

ولتعط كل إنسان وفق حاجته ، فالخالق لا يعطى الملح للعطشان ، ولا الحجر للجوعان ، ولا اللبن للفطيم .

ولا تعط الكلاب ما هو مقدّس ، ولا تضع لآلِئَك فى طريق الخنازير ، لأنك تكون قد سَخِرْتَ منها وأنت تهدى إليها مثل هذه الهدايا ، وهى على هذا سوف تسخر من هداياك ، وفى حقدها ستتحرّق شوقاً إلى دمارك .

لا تدّخروا لأنفسكم كنوزاً هى إلى بِلًى وفساد ، وقد تكون نهباً للسارقين ، بل ادّخروا كنزاً لا يبلى ولا يُسرق ، كنزاً يزداد ملاحة وبهاء مع اختلاف النظرات إليه .

فحيثما يكن كنزك يكن قلبك أيضاً .

ولقد قيل لكم: أما القاتل فخذوه بحدّ السيف ، وأما اللص فسوقوه إلى الصّلب ، وأما الساقطة فارجموها رجماً . ولكنى أقول لكم : إنكم لستم أبرياء من جريرة القاتل واللص والساقطة ، فإنكم حين تنالونهم فى أجسامهم سوف تُظلِم منكم أرواحكم .

وفى الحق ، ليست ثمة جريمة يقترفها الرجل وحده أو المرأة وحدها ، فالجرائم كلها يقترفها الجميع . وهذا الذى يناله العقاب قد يكون وِزره كله أنه حطّم حلقة من حلقات الأغلال التى تُثقل سواعدكم .

ولربما كان يَدفع بما يُعانيه من ألم ثمن ما تستشعرونه من فرح عارض . »

* * *

هكذا تكلم عيسى . ولقد كنت أتوق إلى أن أركع بين يديه إعظاماً له ، ولكن الحياء غلبنى فلم أستطع أن أتحرّك أو أن أنطق بكلمة .

وعندما انتهى تكلّمت وقلت : بوُدّى لو استطعت الصلاة فى هذه اللحظة ، غير أن لسانى ثقيل ، فلتعلّمنى كيف أصلّى .

فقال عيسى : « عند ما تريد الصلاة ، دع شوقك يُملِ عليك كلماتك ، وإن شوقى الآن ليملى علىّ أن أضرع قائلا :

رب العالمين ، رب السماوات والأرضين ، تقدّست أسماؤك ،
لتكن مشيئتك فينا كما كانت دائماً .
وارزقنا من خبزك كفاء يومنا .
واغفر لنا برحمتك ، وامنحنا القدرة على أن يعفو بعضنا عن بعض .

واهدنا صراطك ، وامدد لنا يدك فى الظلمات .

لك المُلك ، وبك القوة ، وبك بلوغ القصد . »

* * *

وعندها ساد الغروب وهبط عيسى التلال ، ومضينا كلنا فى إثره .

وفيما كنت أتبعه كنت أردّد تضرعاته ، وأذكر كل ما قال ، لأنى كنت أعرف أن الكلمات التى تساقطت علينا تساقط البَرَد فى ذلك اليوم لا بد أن تستقر وتنعقد قوية كالبِلَّوْر ، وأن الأجنحة التى خفقت فوق رؤوسنا لابد أن تضرب الأرض ضرب السنابك التى قُدَّت من حديد .



يوحنا بن زَبَدى

إنكم لترون أن نفراً منّا يدعو عيسى : المسيح ، وأن آخرين يسمونه : الكلمة ، ونفراً ثالثاً يقولون له : الناصرى ، وغيرهم ينادونه : بابن الإنسان .

وسأجهد جهدى فى أن ألقى على هذه الأسماء من النور الذى فاض علىّ لتبين .

فالمسيح الذى وجد من قديم الأزمان هو قبس من نور الله حلّ فى روح الإنسان ، وهو نسمة الحياة تحلّ فينا ثم تتخذ لها جسداً كأجسادنا تسكنه .

هو إرادة الله ومشيئته .

هو الكلمة الأولى التى تودّ لو جرت فى أصواتنا وعاشت فى آذاننا ، لعلّنا نعيها ونتدبّرها .

وإن كلمةَ الله ربنا قد بنت لها بيتاً من لحم وعظم واستوت بشراً مثلى ومثلك .

فنحن لا نستطيع أن نسمع نشيد الريح إلاّ أن يأخُذَ شكلا ، ولا أن نرى ذاتنا الكبرى وهى بين الضباب .

ما أكثر ما جاء المسيح إلى هذا العالم ، وما أكثر ما طاف بأرض وبلاد ! وفى كل مرّة كانوا يخالونه غريباً ، ويحسبونه ذا جِنَّةٍ .

على أن رنين صوته لم ينته قط إلى عدم ، فإن ذاكرة الإنسان تحفظ ما لا يُعنَى عقله بحفظه .

هذا هو المسيح العميق النفس البعيد السمو ، الذى يخطو مع الإنسان نحو الأبدية .

أوَلم تسمع عنه على مفترق الطرق بالهند ؟ وفى بلاد المجوس؟ وفوق رمال مصر ؟

وهنا فى بلادكم الشمالية كان الشعراء الماضون يتغنّون عن پروميثيوس سارق النار من الآلهة ، ذلك الذى كان رغبة للإنسان حُققت ، وأملا سجين قفص قد أُطلق . وأورفيوس الذى رُزق صوتاً وقيثارة ، ليُؤنس روح الحيوان والإنسان .

ثم ألم يجئك نبأ الملك مثرا وزرادشت نبيّ العجم ، هبّ من غفوة الإنسان الأول ليقف إلى جانب مهاد أحلامنا ؟

وحين نلتقى ، فى هيكل الغيب مرة كل ألف سنة ، سوف نصبح نحن الآخرون أطهاراً .

إذ ذاك سوف يخرج إلينا متجسّدا .. وعندها سوف يستحيل صمتنا غناء .

ونحن على هذا لا تميل آذاننا دائمًا لتُصغى ، وعيوننا لا تلتفت دومًا لتنظر .

لقد ولد عيسى الناصرى ونشأ كما ننشأ . وكان إنسانًا :

أما المسيح الكلمة الذى كان فى البداية ، والروح التى تريد لنا أن نعيش حياة كاملة ، فقد جاء إلى عيسى وكان معه .

والروح كانت يد الله المدبّرة ، وعيسى كان القيثارة .

الروح كانت الأنشودة ، وكان عيسى النغمة التى رتّلتها .

وعيسى رجل الناصرة كان مضيف المسيح ولسانه الناطق .

هو الذى كان يسير معنا فى الشمس ويدعوننا أصدقاءه .

فى تلك الأيام لم تكن تلال الجليل ووديانها تسمع غير صوته ، وكنت وقتها فتيًّا أقتفى أثره وأتبع خطاه .

كنت أقتفى أثره وأتبع خطاه لأسمع كلمات المسيح من بين شفتى عيسى الجليلى . ولعلكم أدركتم الآن لِـم كان بعضنا يدعوه ابن الإنسان.

وكان هو نفسه يُحب أن يُدعى بهذا الاسم ، لأنه عرف جوع الإنسان وعطشه ، وشاهد الإنسان وهو يجدّ فى إثر ذاته الكبرى .

كان ابن الإنسان هو المسيح ، الرحيم ، الذى أراد أن يكون لنا جميعـًا .

كان هو عيسى الناصرى الذى قاد إخوانه إلى المسيح ، وإلى الكلمة التى كانت كلمة الله منذ الأزل .

وفى قلبى يقيم عيسى الجليلى ، الإنسان الذى هو خير الخلق ، والشاعر الذى يجعل منا جميعـًا شعراء ، والروح التى تطرق أبوابنا علّـنا نستيقظ وننهض وننطلق لنلقى الحق مجرداً سافراً ، غير متعثّر ولا مكدود .



كاهن حدث من كفرنحوم

كان مجوسيًّا لحمًا ودمًا ، وكان عرّافًا .

كان رجلا يخدع البسطاء بالتعاويذ والرُّقى ، ويتلاعب بأقوال الأنبياء ومقدّسات الآباء .

أجل . بل كان يطلب إلى الموتى أن يكونوا شهوده ، وإلى القبور الصامتة أن تكون نُذُره وسَنَده .

وكان يسعى إلى نساء أورشليم ونساء القرى المجاورة يمكُر بهنّ مكر العنكبوت بالذبابة، وكُنّ يقعن في خيوطه . فالنساء ضعيفات، عقولهن هواء ، يجرين في إثر الرجل الذى يؤنس عواطفهن المكبوتة بكلمات لينة رقيقة .

ولولا هؤلاء النسوة الضعيفات المأخوذات بروحه الشريرة ما وعت اسمه ذاكرة .

ثم من هم الرجال الذى اتبعوه ؟

كانوا من تلك الجماعات المغلوبة على أمرها التى أثقلها نير العبودية وامتهنت، وهم فى جهلهم وخوفهم لم يكونوا ليجرؤوا على أن يثوروا على سادتهم الشرعيين .

ولكن عندما وعدهم عيسى الدرجات الرفيعة فى مملكة السّراب التى صوّرها لهم لانُوا لخرافته كما يلين الطين لصانع الفخار . ألاّ تعلم أن العبد فى أحلامه يودّ لو أصبح سيداً ، وأن الضعيف يودّ لو أصبح ليثاً كاسراً ؟

كان الجليلى مشعوذاً ومخادعاً ، يتجاوز عن خطيئات المخطئين جميعاً ، علّه يسمعهم مهلّلين مُبجّلين يُطرونه بأفواههم المدنّسة ، وكان يطعم البائسين من ذوى القلوب الضعيفة ليجمع منهم آذاناً تصغى إلى صوته ، وحواريين يأتمرون بأمره .

وكان لا يدخل فى السبت مع من يدخلون حتّى يظفر بتأييد من لا دين لهم ، وكان يسفّه رأى كبار الكهان حتّى يفوز بثقة مجمع اليهود ، فما خالف لمع اسمه وذاع صيتُه .

وكثيراً ما قلت : إنى أبغض هذا الرجل .

نعم ، لشدّ ما أبغضتُه بُغضاً يُربى على بُغضى للرومان الذين يحكمون بلادى .

كما أبغضت مجيئه من الناصرة — مباءة الوثنيين — التى لعنها أنبياؤنا ، والتى لن يظهر فيها خير أبداً .



ثرى من سبط لاوى
كان فى جوار الناصرة

كان نجاراً ماهراً ،وكان ما يصنعه من الأبواب لا يقوى اللصوص على فتحه أبداً .

وكانت النوافذ التى يصنعها مهيأة لمواجهة الريح من المشرق والمغرب .

ومن خشب الأرز كان يصنع خزائن مصقولة قوية شديدة ، ومحاريث ومذار متينة لا تستعصى على الأيدى .

وكان ينحت الكراسى للكتب المقدسة فى كنائسنا . كان ينحتها من خشب شجر التوت الذهبى . وعلى جانب الدعامتين اللتين تحتضنان الكتاب المقدس كان يحفر أجنحة مبسوطة ، وتحت الدعامة كان يحفر رؤوس ثيران وحمام ، وغزالا بعينين نجلاوين .

كل هذا كان يصنعه على طريقة الكلدانيين واليونانيين .

ولكن ثمة شىء آخر من حذقه لم يكن كلدانياً أو يونانياً .

هاك بيتى مثلا ، فقد شاركت فى بنائه أيد كثيرة منذ ثلاثين عاماً . وكنت أطلب له البنائين والنجارين من مدن الجليل كلها ، وكان لكل منهم مهارته وفنه فى البناء ، وكنت سعيداً راضياً بكل ما صنعوا .

أما الآن فتعال وانظر هذين البابين وتلك النافذة التى صنعها عيسى

الناصرى ، فهى فى رسوخها واستقرارها تُزرى بما عداها فى الدار .

ألا ترى معى أن هذين البابين يختلفان الاختلاف كله عن الأبواب الأخرى؟ وهذه النافذة التى تطلّ على المشرق ، أليست هى الأخرى مختلفة عن غيرها من النوافذ ؟

كل أبوابى ونوافذى تعنو وتَـذِلّ لمرّ السنين إلاّ تلك التى صنعها هو ، فهى وحدها تقف راسخة أمام قوى الطبيعة .

انظر إلى تلك العوارض كيف ثبّتها ، وتلك المسامير كيف نفذت من جانب من جانبى اللوح ، ثم استقرت وثبتت أقوى ما تكون على الجانب الآخر .

أما الشىء الذى فاق فى غرابته ما عداه فهو أن ذلك الأجير نفسه الذى استحق أجر رجلين ، فلم يأخذ غير أجر رجل واحد ، قد نُودى به نبيًّا فى بنى إسرائيل .

لو أننى كنت أدرى حينذاك أن ذلك الفتى ذا المنشار والمِسحاة إنما هو نبىّ لرحت أتوسّل إليه أن يتكلم لا أن يعمل ، وعندها كنت أسخو فى الأجر جزاء ما ينطق به من كلمات .

ولا يزال عندى إلى اليوم رجال كثيرون يعملون فى دارى وحقلى . ولكن كيف أميّز بين ذاك الذى يبسط يده على أداته وبين ذاك الذى تنبسط يد الله فوق يده ؟

أجل كيف لى أن أتبيّن يد الله ؟

راع فى جنوب لبنان

كان الصيف يؤذن بالرحيل ، عندما التقى هو وثلاثة رجال آخرون للمرة الأولى على ذلك الطريق .

وكانت الشمس تؤذن بمغيب فوقف ، وكان وقوفه هناك على حافة المرعى .

وكنت أنفخ فى مزمارى على حين كان قطيعى يرعى من حولى .

وعندما وقف نهضت وسرت إليه ووقفت بين يديه فسألنى :

« أين قبر إيليا ؟ أليس هو قريباً من هذا المكان ؟ »

فأجبته قائلا : إنه هناك أيها السيد تحت تلك الكومة الضخمة من الحجارة . وإلى يومنا هذا لايزال كل عابر سبيل يحمل حجراً ليضعه فوق الكومة .

فشكرنى وتنحّى عنى ، ومضى أصحابه فى إثره .

وبعد ثلاثة أيام قال لى غمّالئيل ، وكان هو الآخر راعياً :

إن الرجل الذى مرّ بنا نبىّ من يهوذا .

ولكنى لم أصدّقه . ومع ذلك ظللت أفكر فى هذا الرجل أشهراً كثيرة .

وعندما حلّ الربيع مرّ عيسى ثانية بهذا المرعى غير أنه كان وحده .

ولم أكن أنفخ فى مزمارى ذلك اليوم إذ كنت قد فقدت إحدى نعجاتى . وكنت أحس همًّا ، وكان قلبى كسيراً يختلج فى صدرى ، فسعيت إليه ووقفت صامتًا بين يديه .

فنظر إلىّ وقال : أنت لا تنفُخ فى مزمارك اليوم . لم هذا الحزن الماثل فى عينيك ؟ »

فقلت : نعجة من نعجاتى فقدتها ، ولقد بحثت عنها فى كل مكان دون جدوى ولست أدرى ما أنا فاعل .

فصمت برهة ، ثم ابتسم لى وقال : « تلبّث هاهنا قليلا وسأجدها لك . »

ومضى عنى حتى وارته التلال .

وبعد ساعة عاد ونعجتى إلى جانبه غير بعيدة منه . وعندما مثل أمامى كانت النعجة تتطلّع إلى وجهه كما أتطلع .

وهنا ضممت النعجة إلىّ فى سرور .

ووضع يده على كتفى وقال : « منذ اليوم ستحبّ هذه النعجة أكثر مما تحب نعجة أخرى فى قطيعك ، لأنك افتقدتها ، ولأنك الآن وجدتها . »

ومرة أخرى ضممت النعجة إلىّ فى غبطة وانشراح . . ودنت منى النعجة وأنا صامت لا أتكلم .

ولكنى عندما رفعت رأسى لأشكر عيسى كان قد ولّى بعيداً . وما ملكت شجاعة تدفعنى لأتبعه .

يوحنا المعمدان
يتحدث إلى تلميذ من تلامذته

لن ألزم الصمت فى هذه البقعة الدّنسة على حين يجلجل صوت عيسى فى ميدان القتال ، فما بالى أرضى أن أكون معقود اللسان عَيِيًّا وهو حر طليق .

ولقد قالوا لى إن الأفاعى تلتفّ حول خاصرته .

غير أنى أجيبهم أن الأفاعى سوف تهيج منه بطشه ، وسوف يدوسها بنعله .

أنا لست إلاّ الرعد يصحب برقه . وإذا كنت قد تكلمت أولا ، فقد كانت الكلمة كلمته وكان الهدف هدفه :

لقد أمسكوا بى دون إنذار ، وقد يلقون القبض عليه هو الآخر .

ولكنهم لن يفعلوا قبل أن ينطق كلمته كاملة .

وسيقهرهم . . .

ستمر عجلته فوقهم وستطؤهم سنابك خيله ،

ويكون له النصر .

وسيمضون قدمًا بالرماح والسيوف ، ولكنه سيلقاهم بقوة روحه .

ستسيل دماؤه فوق الثرى ، ولكنهم هم أنفسهم سوف يستشعرون

لذلك الجراح والألم، وسوف يغرقون فى دموعهم حتّى يتطهّروا من ذنوبهم .

وسترحف ألويتهم صوب مدنه بمجانيق من حديد ، ولكنهم فى طريقهم إليه سيغرقون فى نهر الأردن .

وستمعن أسواره وأبراجه فى العلو ، وستسطع دروع جنوده تحت الشمس أشد لمعاناً مما كانت .

هم يقولون إننى وإياه عصبة ، وإن مقصدنا هو أن نستنهض الناس للعصيان والثورة على مملكة يهوذا .

وإنى لأجيب ، وليتنى أملك مكان الكلمات شواظاً من نار : إذا كانوا يعدّون هذا الجحيم الملىء بالظلم والشرور مملكة فَلْتَهوِ إذن مملكتهم إلى الحضيض، ولينزل بها الخراب حتّى تصبح أثراً بعد عين . ولتذهب إلى حيث ذهبت سدوم وعمورة ، وليخرج هذا الجنس من رحمة الله ، ولتتحوّل هذه الأرض إلى رماد .

أجل . فخلف أسوار هذا السجن كنت فى الحق نصيراً لعيسى الناصرى ، وسوف يقود جيوشى ، فرساناً ومُشاة ، وما أنا بقَمين أن أحُلّ رباط نعليه وإن كنت من القادة .

امض إليه وردّد كلماتى هذى واسأله باسمى أن يمنحنا الله الراحة والبركة .

لن يطول مكثى هاهنا . فى الليل بين اليقظة واليقظة أحسّ بأقدام متمهّلة تخطو خُطًى رتيبة تطأ هذا الجسد . وعندما أصيخ أتسمّع

أحسّ المطر يسّاقط فوق قبرى .

امض إلى عيسى وقُل له : إن يوحنا الخضرونى ، الذى امتلأت روحه بالأطياف ثم عادت خالية ، يصلّى من أجله ؛ بينما حفّار القبور يقف إلى جواره ، والسيّاف يمد يده ليتسلّم أجره .



يوسف الرامي

لعلك راغب فى أن تتعرف الهدف الأوّل لعيسى ، وكم وددت لو أخبرتك خبره ، ولكن أنّى لإنسان أن يتحسّس بأصابعه الروح التى تدب فى الكرمة المباركة ، أو أن يبصر العُصارة التى تجرى بالغذاء فى فروعها .

ولقد طعمت من أعنابها وذقت باكورة عصارتها فى إبانها وهى تسيل من المعصرة . وأنا على ذلك عاجز عن أن أحيطك بكل شىء علماً .

وكل ما أستطيع أن أقصّه عليك هو ما أعرفه عنه : ما عاش سيدنا وحبيبنا غير فصول ثلاثة من فصول النبوة :

ربيعه الصادح الغرد ، وصيفه الهائم النشوان ، وخريفه الواجد المكدود ، وألف سنة دام كل فصل من هذه الفصول .

* * *

أما عن ربيعه الصادح الغرد ، فقد أمضاه فى الجليل ، وهناك جمع حوله مُريديه ، وعلى شواطئ البحيرة الزرقاء أنشأ يتحدث عن الخالق وعن الخلاص وعن الحرية .

وإلى جوار بحيرة الجليل تجرّدنا من ذواتنا لنعرف سبيلنا إلى الله . ولكن ياللعجب . . . كم كان ضئيلا هذا القليل الذى فقدناه إلى جوار هذا الذى تناهى إلينا . . .

فهناك نفذ تسبيح الملائكة إلى آذاننا يُغرينا بأن نخلّي الأرض الجرداء المُقفرة ونقصد جنة تتوق إليها القلوب .

وتحدّث عن الحقول المخضرة والمراعى المعشبة وعن منحدرات لبنان ، حيث زهرات السوسن البيضاء لاتبالى القوافل وهى تضرب فى الوادى التّرِب ، وتحدّث عن الورود البرية التى تشرق بنور الشمس وتهب النسيم عبيرها وهو يمرّ بها .

ولقد كان يقول : « إن هذا السوسن وتلك الورود البرية لا تحيا غير يوم ، ولكنه يوم من الخلود تقضيه حرّة . »

وفى أمسية من الأمسيات بينما نحن جلوس إلى جانب الجدول سمعناه يقول :

« تطلّعوا إلى هذا المجرى واستمعوا إلى خريره ، وهو دائب السعى إلى البحر ، وإنه مع هذا السعى المتصل ، يُفصح خريره عما يخفى ويكنّ ، ظُهراً فى أثر ظُهر . ألا ليتكم تسعون إلى ربكم سعى هذا الجدول إلى البحر . »

* * *

وبعدها ، حلّ صيفه الهائم النّشوان ، وأظلّنا من أشهر حبه حزيران ، فما تكلم عن شىء غير الرجل الآخر : الجار ، ورفيق الطريق ، ورفاقنا فى ملاعب الصبى .

تحدث عن المسافر الراحل من الشرق إلى مصر ، وعن الحارث وهو يروح إلى بيته مع الغروب وبين يديه ثيرانه ، وعن الضيف الطارئ

بقوده أنوار الشفق إلى دارنا .

إذ ذاك كان يقول : « جارك هو ذاتك الخفية غدت مرئية ، وفى مائك الساكن ينعكس وجهه . ولو أنعمت النظر لرأيت فيه محيّاك أنت .

وإذا أصخت السمع حين يُجنّك الليل فلسوف تسمعه يتكلم ، ولسوف تجد فى كلماته خفقات قلبك .

فلتكن له كما تحب أن يكون هو لك .

هذه هى سبيلى ، ولسوف أقولها لكم كما سأقولها لآبائكم . ولسوف يقولها أبناؤكم لأبنائهم من بعدهم إلى أن تقوم الساعة ويفنى الخلق . »

وتحدث إلينا يوماً ما فقال :

« لا تنشد ذاتك فيك وحدك ، بل انشدها فى أفعال غيرك من الناس ، فإن هؤلاء ، وإن جهلت ، يعيشون معك طيلة حياتك .

وليس ثمة جرم يقترفونه إلا كانت أيديكم فى أيديهم .

ولن يقعوا إلاّ حين تقعون ، كما لن ينهضوا إلاّ حين تنهضون .

وإن طريقهم إلى بيت الله لهو طريقكم ، وهم حين يضربون فى التيه ، فكذلك أنتم تضربون .

وما مثلكم ومثل جيرانكم إلاّ مثل حبّتين قد بُذرتا فى حقل، تنبتان معاً وتتمايلان معاً فى مهب الريح ، ولن يدّعى أحدكما الحقل دون أخيه ؛ فإن البذرة فى نمائها لا تطلب شيئاً بَلْه نشوتها هى .

إنى اليوم معكم وغداً سوف أقصد إلى الغرب ، ولكنى أقول قبل أن أمضى لسبيلى :

جارك هو ذاتك الخفيّة غدت مرئية ، فبالحب اطلبه عساك أن تهتدى إلى نفسك، فإنكم عندما تبلغون هذا تبلغون أن تكونوا إخوة لى . »

* * *

ثم كان خريفه الواجد المكدود ، فتحدّث إلينا عن الحرية، وكأنه يحدثنا فى الجليل أيام ربيعه الصادح الغرد ، غير أن كلماته اليوم كانت تخاطب منا أغوار النفوس .

فتحدّث عن أوراق الأشجار ، لا نسمع نشيدها إلاّ حين تذروها الرياح .

وتحدّث عن الإنسان ، وكأنه الكأس ملأها ملك اليوم الموكل به ، ليروى منها غُلته ملك آخر . وسواء أكانت الكأس ملأى أم فارغة فستظل بِلّورية شفافة على مائدة العلىّ المتعال .

ثم قال : « أنتم الكأس وأنتم الشراب . اشربوا أنفسكم حتى الثمالة أو اذكرونى أَرْوِ غُلتكم . »

وحين كنا فى طريقنا إلى الجنوب قال لنا : « لسوف يهوى بيت المقدس الذى يبدو شامخًا فوق المرتفعات ، فى جهنّوم ، ذلك الوادى السحيق ، وعلى أطلاله سترونى وحيداً .

ولسوف ينهار المعبد ترابًا ، ومن حول الرواق سوف تسمعون صراخ

الأرامل وعويل اليتامى ، ويفرّ الناس عجلين ، ينكر الأخ أخاه لشدة ما غشيهم جميعاً من الفزع .

غير أنه إذا لقى منكم الرجل الرجل هنالك، وهمسا باسمى وولّيا وجهيهما شطر المغرب فسوف يريانى ، وسوف تتحدّر كلماتى إلى آذانهما . »

وما إن أدركنا تل « بيت عنيه » حتى قال :

« فلنذهب إلى بيت المقدس فإنها تترقب مجيئنا . ولسوف أدخل من البوابة ممتطياً فلوّاً ، وسأقول لذلك الحشد : ما أكثر الذين يريدون أن يطوّقونى بالأغلال . وما أكثر الذين يريدون أن يطفئوا نورى ، ولكنكم فى مماتى ستجدون الحياة ، وستكونون طلقاء .

إنهم سينشدون الأنفاس التى تضطرب بين القلب والعقل كما يضطرب العصفور بين الحقل وعشّه ، ولكن هاهى ذى أنفاسى قد فاتتهم ، وسوف لا يكون لهم الأمر علىّ .

إن السياج الذى حاطنى به الله لايتداعى ، وتلك الأرض التى قدّسها الله لن تنتهك .

وعند ما يبزغ الفجر سوف تتوج الشمس رأسى ، وسوف أمضى وإياكم لنستقبل يومنا ، وسوف يكون هذا اليوم طويلا لا يشهد العالم له غروباً .

وإن الكتبة والفريسيين ليقولون : إن الأرض تتحرّق ظمأ إلى دمى . واسوف أروى ظمأ الأرض بدمى ، ولسوف تنبت قطرات دمى أشجار

البلوط والغرْب ، ولسوف تحمل الرياح الشرقية بذ ورها إلى بلاد أخرى . »

ثم مضى يقول :

« إن أمة اليهود تريد ملكاً ينهض إلى جيوش رومه ، غير أنى لن أكون ملكها ، فإن تاج صهيون قد هُيئ لجبين دون جبينى ، وخاتم سليمان أضيق من أن يتسع لإصبعى .

ألا ترْون إلى يدى ، ثم ألا ترون أنها أجلُّ من أن تقبض على صولجان ، وأقوى من أن تهزّ سيفاً من السيوف ؟

ما كان لى أن أسوق الناس من سوريه حرباً على أولئك من رومه ! ولكنكم بكلماتى سوف توقظون تلك المدينة ، وسوف تناجى روحى فجرها الثانى ، ولسوف تكون كلماتى جيشاً لاترونه بخيله وعتاده ، لا يحمل فؤوساً ولا حرابا ، وبه سوف أقهر كهنة بيت المقدس كما سأنتصر على القياصرة .

لن أتربّع على عرش تبوأ عليه عبيد ليحكموا غيرهم من العبيد ، كما لن أكون حرباً على أبناء إيطاليه .

ولكنى سأكون عاصفة فى سمائهم وأغنية فى أرواحهم .

وسيذكروننى .

وسيدعوننى عيسى المسيح » .

* * *

قال عيسى هذه الكلمات خلف أسوار بيت المقدس من قبل أن يدخل المدينة .

وكأن كلماته قد حفرت بإزميل ..

ناثانئيل

يقولون فيما يقولون : إن عيسى الناصرى كان متواضعاً وادعاً .
ويقولون : إنه على ما كان يتصف به من العدل والإنصاف كان مستضعفاً ، وكثيراً ما كان يُرْتَج عليه بين يدى كل جبار عنيد ، وكان إذا مثل بين يدى ذوى السلطان ، فكالحَمَل الوادع بين السباع .

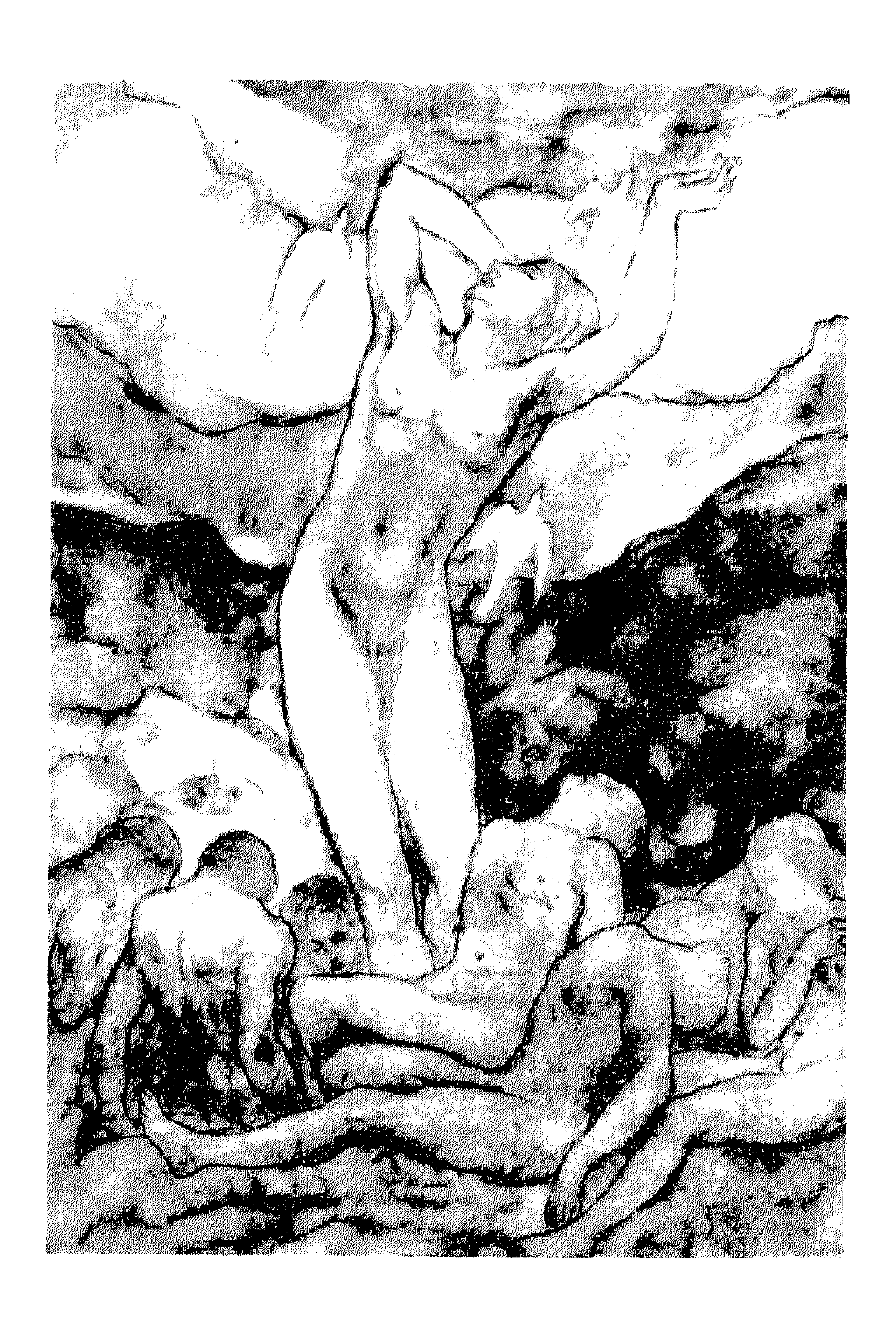
ولكنى على هذا أقول : إن عيسى أوتى سلطاناً على الناس ، وإنه كان على علم بما يملك من قوة ، أعلن عنها بين تلال الجليل وفى بلاد الميعاد ومدن فينيقية .

أترى الرجل الذليل المهين يقول : إنى أنا الحياة ، وإنى أنا الطريق إلى الحقيقة ؟

أترى الرجل المتواضع المتهالك يقول : إنى أنا روح الرب ، وفىّ حلت روح الربّ ؟

أترى الرجل الذى لا علم له بما أوتى من قوة يقول : إن من لا إيمان له بى ، لا إيمان له بالحياة ولا بالأبدية ؟

أترى الرجل الذى هو فى شك من غده يقول : ستمضى دنياكم وسوف تنتهى إلى الفناء ، بل سوف تصير رماداً تذروه الرياح قبل أن



تبلغ كلماتى مداها ؟

ثم أتراه كان فى ريبة من أمره حين قال لمن سعوا إلى بـَلـْبـَلـَتـِه بساقطة : من كان منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر ؟

أتراه كان من الذين يخشون السلطان حينما أخرج الصيارفة من ساحة الهيكل ، وكان الكهنة قد أباحوا لهم ذلك ؟

أتراه كان مقصوص الجناحين حين صاح عاليـًا : إن مملكتى دونها ممالككم الأرضية ؟

أتراه كان يبغى الأمن والسلامة فى ظل الكلمات ، حين قال وكرّر ما قال مرّة بعد مرّة : اهدموا هذا الهيكل وسوف أبنيه لكم ثانية فى أيام ثلاثة ؟

أتراه كان جبانـًا ذاك الذى لوح بيده فى وجه الحكام وهو يجيبهم : كذابون أدنياء ، أنجاس ، لؤماء ؟

وهل يدعى حليمـًا متواضعـًا ذاك الرجل المقدام الذى يقول ما قاله عيسى لمن يهيمنون على أرض الميعاد ؟

كلا ثم كلا ، فالنسر لا يبنى وكره بين الصفصاف المتهدل ، والليث لا يتخذ عرينه بين السرخس المتطامن .

إنى لأحسّنى عليلا ، وإنى لأجد جوفى يضطرب ويعلو إلى صدرى فيحبس أنفاسى حين أسمع إلى هؤلاء الذين فى قلوبهم خـَوَر ، يسمّون عيسى

متواضعاً ويدعونه وادعاً ، يبررون بذلك خور قلوبهم وضعف نفوسهم .
وكذا المهينون إذ ينشدون الدّعة والألفة حين يتكلمون عن المسيح ، يجعلونه كالدودة تزحف متألقة فى جوارهم .

أجل ، إن قلبي ليضيق بهؤلاء الرجال .

إنما أبشر بالمسيح القانص المقتدر ، والروح الصلدة التى لا تقهر .



سايا الأنطاكى

اليوم استمعت إلى شاؤول الطرسوسى يبشّر بالمسيح بين اليهود فى هذه المدينة :

إنه الآن يدعو نفسه بولس ، وإنه مرسل إلى الكفار .

ولقد عرفته فى صباى، وكان فى تلك الأيام حرباً على أصحاب الناصرى . وما يغيب عن ذاكرتى رضاه عن أصحابه وهم يرجمون هذا الشاب النابه إسطفانوس .

ولقد كان بولس هذا رجلا غريباً حقّاً ، لم تكن نفسه نفس إنسان حر ، وكان فى الحين بعد الحين يبدو كأنه الحيوان من حيوان الغاب قد أثخنه الصائدون بالجراح ، وهو يلتمس كهفاً يحتجب فيه بآلامه عن دنياه .

وما تحدّث عن عيسى وما ردّد كلمة من كلماته ، ولكنه بشّر بالمسيح المنتظر الذى أنبأ به الأنبياء من قبل .

وهو نفسه من أحبار اليهود ، ولكنه يتحدث إلى أتباعه من اليهود باليونانية ، يتعثّر لسانه ولا ينطلق ، ولا يحسن انتقاء الألفاظ .

غير أنه مع هذا رجل له قوة خفية ، وهو فى محضره يبدو مؤيّداً بهؤلاء

الذين يلتفّون حوله ، والذين كان يدعوهم حيناً إلى الإيمان بما لاثقة له به .

* * *

.. ونحن الذين عرفنا عيسى وسمعنا عظاته ، نقول إنه كان يعلّم الناس كيف يحطّمون أغلال الأسر علّهم يخلصون من ربقة الأمس .

غير أن بولس كان يقدّ الأغلال لرجال الغد ، وكان يطرقها بمطرقته على السندان باسم نبي لم يتأتّ له أن يعرفه .

والناصرى كان يريد لنا أن نحيا الساعات بين العاطفة والنشوة .

على حين كان الطرسوسى يحب لنا أن نُلقى بالا لما فى الكتب القديمة من شرائع وقوانين .

ولقد نفخ عيسى من روحه فيمن هم أموات غير أحياء .

وأنا عند ما أخلد إلى نفسى مع الليل أؤمن به وأفهمه .

وعندما كان يجلس إلى المائدة كان يقصّ من القصص ما يبعث السعادة فى نفوس المدعوين ، وكان بمرحه يشهّى اللحم إلى الآكلين والنبيذ إلى الشاربين .

ولكن بولس يصف لنا الخبز والشراب على أنهما دواء .

والآن فلتدعنى أولّ وجهى شطر الطريق الآخر .

من سالومي
إلى صديقة لها

كان كأشجار الحور المتألقة تحت ضوء الشمس .
وكالبحيرة بين التلال الموحشة تتلألأ صفحتها تحت أشعة الشمس .
وكالجليد فوق قمم الجبال .
أبيض ، ناصعًا تحت نور الشمس .
أجل ، كان أقرب إلى هذه كلها شبهًا .
ولقد أحببته ،
على أنى كنت أهاب محضره .
وما قويت على النهوض لثقل ما أحمل من حب ،
كى أرتمى على قدميه أطوقهما بذراعى .
وكم تمنيت أن أقول له :
« فى ساعة من ساعات الهوى ، سفكت دم صاحبك
فهلا غفرت لى خطيئتى ؟
وهلا خلصت شبابى ، شفقة به ورحمة ،
من ضلالته .
عله يهتدى بهديك ؟

وإنى لأعلم أنه كان يغفر لى رقصى
لأظفر بهذا الرأس الطاهر . . . رأس صاحبه .
وإنى لعلى يقين بأنه كان سيرى فىّ موضوعاً لتعاليمه هو .
فليس ثمة وهدة مقفرة إلا أقام عليها معبراً ،
ولا مفازة عطشى إلا جازها .

* * *

أجل ، فلقد كان كأشجار الحور تماماً .
وكالبحيرات بين التلال .
وكالجليد الذى يكسو لبنان .
ولقد وددت لو أبردت حرّ شفتى بين طيات ثوبه .
غير أنه كان بعيداً عنى ،
وكنت مستخزية ،
وقد حجبتنى أمى وراءها ،
حينما حفزتنى الرغبة فى أن أمضى فى إثره .
وكان كلما مرّ بى ، انصدع قلبى لجماله ،
ولكن أمى كانت تتجهم له فى ازدراء ،
وتردّنى ، عجلة بى ، عن أن أنظر من النافذة ،
لأمضى إلى مخدعى ،

وهى تصرخ عاليًا قائلة :
وهل يكون هذا غير آ كل جراد آخر جاء من الصحراء ؟
وهل هو إلاّ واحد من هؤلاء المستهزئين المرتدين ،
المروّجين للفتنة ، يسعى ليسلبنا التاج والصولجان ،
ويغرى بنا ما فى أرضه الملعونة من ثعالب وأبناء آوى ؛
فتصيح عاوية فى ساحاتنا وتتربع على عرشنا ؟
اغربى عنى بوجهك فلا أراك منذ اليوم ،
وارتقبى يومًا يسقط فيه رأسه ،
ولكن فى غير صفحتك .
قالت لى أمى هذا كله .
غير أن قلبى لم يعِ كلماتها .
لقد أحببته سرًا ،
وكنت فى منامى أحس النار تحيط بى .
وهاهو ذا قد رحل عنا ،
وقد ذهبت بذهابه بُضعةٌ من نفسى
لعلها كانت صبوة الشباب !
لم ترد أن تبقى ،
مُذْ ولّى مذبوحًا إله الشباب . . .

راحيل
إحدى تلميذاته

ما أكثر ما انتابتني الحيرة فيما إذا كان عيسى إنساناً من الأَناسيّ من لحم ودم ، أو هو طيف يطيف بالرأس لا صورة له ، أو خيال يتراءى للإنسان فيما يتراءى . .

وما أكثر ما بدا لى حلماً من تلك الأحلام — تراها كثرة لا تحصى من الرجال والنساء — فى سبات عميق لا يَعْدِلُه سبات ، ومعَ سَحَر رخيّ ساج لا يقاس به سحر . .

ويخيل إلىّ وقد أخذ كل منا يقصّ رؤياه على صاحبه ، أننا قد جعلنا نعد هذا الحلم حقيقة وقعت لنا دون ريب ، نضفى عليه جسماً كما نخال ، ونضيف إليه صوتاً يعليه تشوّقنا إليه ، فإذا جَرْسه من جرس أصواتنا . .

ولكنه حقاً لم يكن حلماً ، فلقد عرفناه على مر أعوام ثلاثة ، وتطلّعنا إليه بعيون مبصرة والشمس فى رابعة النهار .

ومسّت أيدينا يديه ، ومضينا فى إثره من مكان إلى مكان ، واستمعنا إلى عظاته وشهدنا أفعاله . .

أترانا كنا فكرة تنشد مزيداً من أفكار ، أم حلماً فى مملكة الأحلام ؟

وكم تبدو جلائل الأحداث إلينا غريبة عما نألف فى حياتنا اليومية ، على حين تجتمع طبيعتها وطبيعتنا على أصول ممتدة ، ولكنها على هذا تطالعنا مباغتة ، وتمرّ بنا حين تمر مباغتة ، وأجلُها الحق أعوام وأجيال ..

كان عيسى الناصرى نفسه الحدث العظيم .. فلقد كان هذا الرجل الذى عرفنا أباه وأمه وإخوته هو نفسه معجزة وقعت فى مدينة اليهودية .

أجل ، فلو أن معجزاته كلها جمعت بعضها فوق بعض ، عند موقع قدميه ما بلغت كعبيه .

ولن يمحو مرّ السنين وجريان الأيام والليالى ذكراه من نفوسنا ..

فلقد كان مع الليل كالجبل المشتعل ناراً ، غير أنه كان يبدو من وراء التلال نوراً خافتاً ..

وكان كالرعد المدوّى فى السماء ، غير أنه كان فى غلس الصبح همساً ودمدمة ..

وكان كالسيل المنحدر من المرتفعات إلى الوديان يطوّح بكل شىء أمامه ، كما كان يحكى بسمات الأطفال رقة وليناً .

وكم تطلعت إلى الربيع من كل عام لأزور هذا الوادى الذى ينزله . كنت أرقب ظهور شجيرات السوسن وآذان الأرنب . ولكنى مع كل عام كنت أحمل نفساً حزينة ، فإن هذا الذى كنت أتوق إليه مع الربيع لأريح به نفسى لم أحقق منه شيئاً .

غير أن عيسى ما كاد يتصل بأيامى حتى كان ربيعى الذى أنشده ، وتمنيت معه لو تتابعت السنون .

فلقد ملأ علىّ قلبى غبطة ، وكما ينمو البنفسج نموْت حييّة خجلة فى نور إقباله .

واليوم ما عاد تقلّب الفصول — فى عوالم ليست بعدُ ملكاً لنا — بمستطيع أن يمحو جماله من دنيانا هذه .

كلا ، فما كان عيسى زيفاً من الزيف ، ولا خيال شاعر ، بل كان رجلا مثلك ومثلى فى مرأى العين وملء الحس وملء السمع ، ثم هو بعد هذا لا يجتمع معنا على شبه :

كان رجلا مرح النفس ، وعلى طريق المرح التقى بأحزان الناس . ولقد استشف وهو فى سماء آلامه ما يمرح به الناس ويلهون ، ورأى ما لا نستطيع أن نراه من رؤى ، وسمع ما لا ندرك أن نسمعه ، وكان وهو يتكلم كأنما يتحدث إلى جموع غفيرة لا يراها . وما أكثر ما تحدث إلينا وهو يخاطب منا سلالات لم تولد بعد !

وكثيراً ما كان عيسى يبدو وحيداً . كان يعيش بيننا ولكنه لم يكن منا . ولقد سار على الأرض ولكنه كان من عالم السماء . وفى نزوعنا إلى أجمل ما فى أنفسنا فحسب قد نلقاه فى تفرّده .

ولقد أحبّنا حباً ملؤه الحنان . وكان قلبه يفيض بالحب فيض

معصرة الكروم . وكان لى ولك أن نتقدم منها بكؤوسنا فى أيدينا نغترف ونشرب .

ولكن ثمة شيء لم أستطع إذ ذاك فهمه عن عيسى : فلقد كان يميل إلى مداعبة سامعيه وإدخال السرور على نفوسهم ، يضمّن حديثه إليهم ألوانًا من الطرائف ويتلاعب بالألفاظ ، ويضحك من كل قلبه . يفعل هذا كله حتّى حين ترى عينيه ساهمتين شاخصتين ، وحين تحسّ الحزن فى نبرات صوته . غير أنى قد فهمت الآن :

فكثيراً ما كنت أخال الأرض أشبه شيء بامرأة مشغولة بطفلها البكر ، وكان عيسى ، حين وُلد ، هذا الطفل البكر ، وكان حين مات ، أول إنسان يموت .

أو لم تَبْدُ لك الأرض قد همدت فى ذلك اليوم العابس . . يوم الجمعة ؟ ثم ألم تجد أن السماوات قد هاجت بينها ثورة صاخبة ؟

ثم ألم تحس حين غاب وجهه عن أعيننا كأننا لم نعد شيئًا . . . غير ذكريات فى الأفق البهيم ؟



كلاوُبا
من بيت حيرون

كان عيسى إذا تحدّث ألقت إليه الدنيا كلها بسمعها وأمسكت عن الكلام .

إذ لم تكن كلماته لآذاننا وحدنا ، بل كانت لكل عنصر خلق الله منه الأرض .

فكان حديثه إلى البحر — أصلنا الجليل العظيم الذى منه كانت النشأة الأولى — وإلى الجبل ، لِـدَتِنا الكبير بقمّته التى هى عهدٌ .

كما تحدث إلى الملائكة فيما وراء البحار والجبال ، الذين استودعناهم أحلامنا قبل أن تُنضج الشمس ما فى بِـنْـيَتِنا من طين :

وها هوذا حديثه ما انفكّ هاجعاً فى صدورنا ، وكأنه أغنية من أغانى الحب بين الذكرى والنسيان ، وقد يحترق فيصّاعد إلى ذاكراتنا .

ولقد كان حديثه سهلا جذلا ، وجرس صوته أشبه بالماء القَراح قد أصاب أرضا عطشى .

ومرة رفع يديه إلى السماء فبدت أصابعه وكأنها أغصان الجمّيز ، ثم أخذ يقول فى صوت جَـهْـوَرَى :

« لقد تحدّث إليكم الأنبياء من قبل ، ولقد امتلأت آذانكم

بكلامهم ، غير أنى أقول لكم . . اطرحوا من آذانكم كل ما سمعتموه . »

وما كانت كلمات عيسى « ولكنى أقول لكم » حين قالها ، تصدر عن رجل من بنى البشر ولا من عالمنا ، وما أحراها أن تكون لطائف من الملائكة يعرّج فى سماء أرض الميعاد .

وكان يقتبس المرة بعد المرة من الشرائع ، وينقل عن الأنبياء ، غير أنه كان يعقب بقوله : « ولكنى أقول لكم . . . »

أواه ! أية كلمات من نار ، وأية أمواج قذفت بها بحار الغيب إلى سواحل الذكرى كانت هذه العبارة : « ولكنى أقول لكم . . . » !

وأية نجوم تلك التى تنفذ إلى ظلام النفوس ! وأية نفوس مُسَهَّدة تلك التى ترقب الفجر !

وما أعوز من يقص عليك شيئًا من حديث عيسى إلى قوة هذا الحديث ، أو إلى صدى منه !

ولن تجد عندى هذا الحديث ولا صداه .

ولتغفر لى أن بدأت معك حديثًا لا أستطيع أن أختمه ، وما أظن الختام على شفتى بعد .

فهو لا يزال أغنيةَ حبٍّ تردد الرياح صداها .



نغمان من الجرجسيين

وتفرّق حواريوه ، ولكنه قبل أن يختطفه الموت خلّف لهم الألم إرثاً وأوصاهم به . فلقد تخطّفهم الناس وطاردوهم كما تطارد الغزلان والثعالب فى المروج ، ولا تزال كنانات القانصين مفعمة بالسهام .

ولكنهم كانوا حين يُجمعون ويساقون إلى الموت يستقبلونه فرحين بوجوه متلألئة تلألؤ وجه العروس يوم عرسها .

فلقد خلف لهم ، مع ميراث الألم ، الفرح والسرور .

وكان لى صديق من بلاد الشمال، وكان اسمه اسطفانوس. ولقد ساقوه إلى السوق ورجموه حين جهر بأن المسيح ابن الله .

وحينما وقع اسطفانوس على الأرض بسط ذراعيه يريد أن يحكى سيده فى مماته، وكانت ذراعاه مبسوطتين، وكأنهما جناحان يريد أن يحلق بهما .

وعندما خبا آخر بصيص فى عينيه رأيت بعينىّ بسمة على شفتيه .

بسمه تحكى تلك النفحة التى تهب قبل انصرام الشتاء ، ضمانًا وبُشرى بمقدم الربيع .

وأنَّى لى أن أصفها !

لقد خيل إلىّ أن اسطفانوس كان يقول :

« إذا قدر لى أن أمضى إلى عالم آخر ، وإذا قدر لرجال آخرين أن يسوقونى إلى السوق ليرجمونى فلن أرانى عندها إلاّ جاهراً باسمه ، لهذا الحق الذى رأيته فيه ، ولهذا الحق نفسه الذى أستشعره الآن . »

ولقد رأيت أن هناك رجلا يقف إلى جوارى ، وكان ينظر فرحاً إلى اسطفانوس وهو يُرجم .

وكان اسم هذا الرجل شاؤول الطرسوسى ولقد كان هو الذى سلم اسطفانوس إلى الكهنة والرومان والغوغاء ليرجموه .

وكان شاؤول أصلع الرأس قميئاً أجنأ الكتفين ، وكان بعدُ دميم الشكل ، ولم أكن أميل إليه .

ولقد انتهى إلىّ أنه اليوم يبشّر بعيسى من فوق سطوح البيوت . . . صعب على أن أصدق .

غير أن القبر غير مستطيع أن يحول بين عيسى وبين أن يخطو إلى معسكر أعدائه ، ليؤلف بين قلبه وبين قلوبهم ، وليأسر الذين يناصبونه العداء بجميل الفعال .

مع أنى لازلت أكره هذا الرجل الطرسوسى ، فقد أخبرتُ أنه بعد موت اسطفانوس رُزِق من أسلس قياده وغزا قلبه بالإيمان ، غير أن رأيه كان بالقياس إلى قلبه كبيراً، وما هكذا يكون الحوارى الحق .

ولعلى على ذلك أكون مخطئاً ، فما أكثر ما أخطئ .

توما

قال لى جدّى مرة وكان من المشرّعين : « فلنتدبّر الحق ، وليكن تدبّرنا له حين يطالعنا جليًّا بيّناً » .

ما إن دعانى عيسى حتى ألقيت بالاً إليه ، إذ كان فى أمره أقوى من إرادتى ، غير أنى احتفظت برأيى .

فحين تكلم عيسى وكان الناس من حوله يتمايلون طرباً تمايل الأغصان فى مهب الريح ، أصغيت إليه جامداً لا أحرك ساكناً ، ولكننى أحببته .

ولقد خلّفنا منذ أعوام ثلاثة رُفقاء قد تفرقوا أيدى سبا يتغنون باسمه وكانوا شهوده الداعين له بين الأمم .

وكنت عندها أُدعى توما المرتاب ، وكان طيف جدى لا يفارقنى ، وكنت أرغب دائماً فى أن يطالعنى الحق جليًّا بيّناً .

بل إننى قبل أن أؤمن بأنى جريح كنت أحب أن أضع يدى على جرحى لألمس الدم .

غير أن المرء الذى يحمل فى قلبه الحب وفى فكره الشك لن يكون غير عبد على ظهر سفينة ، ينام عند المجداف يحلم بحرّيته ولا يستيقظ إلا على سوط سيده .

ولقد كنت أنا نفسى ذلك العبد ، وكنت أحلم بالحرية ، ولكنى



كنت أرزح تحت سبات جدى ، وكان جسدى يعوزه السوط الذى تسوطنى به أيامى .

وحتى فى حضرة الناصرى كنت أغمض عينى ، لأجد يدىّ مشدودتين بالأغلال إلى المجداف .

ما الشك إلاّ ألم استبدت به الوحدة حتى إنه لم يعد يعرف أن الإيمان هو له توأم .

إن الشك كاللقيط البائس الشريد ، تريد أمه التى ولدته أن تحتضنه فيرتد فى حذر وخوف .

إذ لن ينتهى الشك إلى اليقين حتى تلتئم جراحاته وتندمل .

ولقد كنت فى شك من عيسى حتى طالعنا بما عنده، وسبرت بيدى جراحاته .

عندها آمنت حقاً، وبعدها برئت من أمسى وأمس أسلافى الأولين .

أما ما كان منى فانياً فقد عفى بعفاء أسلافى ، وكل حى فىّ سوف يحيا من أجل السيد المسيح له وحده، الذى عاش بيننا إنساناً وابن إنسان.

وبالأمس قالوا لى: إنه فُرِضَ علىّ أن أذهب وأذيع اسمه بين العجم والهندوس .

ولسوف أذهب ، ومن اليوم إلى أن أموت ، مع مرّ الغداة وكرّ العشى ، سوف أرى السيد الهادى يتسامى فى جلاله وسوف أسمع إليه يتحدث .

المودام المنطقى

إنك تطلب إلىّ أن أحدثك عن عيسى الناصرى ، وإن عندى كثيراً أقوله عنه، ولكن الوقت لمّا يحن بعد . على أن كل ما أحدثك به عنه الآن هو الحق . . . إذ أن كل حديث لا غناء فيه إلاّ إذا صدر عن الحق .

انظر إلى الرجل المتمرّد تراه حربا على كل نظام ، وانظر إلى الرجل المُعْوِز تراه يناوئ المالكين على ما يملكون ، وانظر إلى الرجل السكّير لا تراه مرحاً إلا بين المتشردين والصعاليك .

ما نال فى دولته حظ الابن الذى حظى بالجاه ، ولا فى إمبراطوريته نصيب المستوطن المرعىّ الحقوق ، وهو لهذا كان يمتهن الدولة ويهوّن من الإمبراطورية .

ولقد أراد أن يعيش حرًّا متخففاً من كل واجب كما يعيش الطّير فى جوّ السماء . من أجل هذا أرْدَتْه سهام الصائدين صريعًا على الأرض .

وهل هو بناجٍ من الحجارة المتساقطة مَنْ يدُكّ صروح الأمس المشيدة ؟

وهل هو بناج من الغرق من يفتح أبواب الخزّان الذى أقامه أسلافه ؟

هذا هو الناموس ، ولقد حبط عمل عيسى وأتباعه الحمقى وذهبت ريحهم حين خرج الناصري على هذا الناموس :

وكثيرون كانوا على شاكلته ، أرادوا أن يغيروا مجرى الأقدار .

فإذا هم المردودون ، وإذا هم الخاسرون .

وإنك لتجد إلى جانب أسوار المدينة أعناباً لا تثمر تزحف صُعداً متشبثة بالصخور .

فلو أن الأعناب حدثت نفسها وقالت : سوف أحطم تلك الأسوار بحولى وثقلى .

ترى ماذا يقول غيرها من النباتات ؟

إنها لاشك سوف تسخر منها لغبائها !

والآن يا سيدى . . هل من سبيل إلى السخرية من هذا الرجل وحوارييه الضالين ؟



إحدى المـريمات

كان مرفوع الرأس دائماً ، وكانت عيناه متوقّدتين بنور الله .

وكان كثير الحزن ، ولكن حزنه كان رحمة منه بالموجعين ، وسلوى لكل وحيد .

وكانت ابتسامته حين يبتسم كأنها اللهفة تتبيّنها فى وجوه المتشوّفين إلى الغيب .

وكأنها غبار نفضته النجوم على جفون الأطفال .

وكأنها القطعة من الخبز فى الحلق .

لقد كان حزيناً ، ولكن هذا الحزن كان أقرب إلى أن يعلو الشفاه فيستحيل بسمة .

ألا ما أشبه بسمته بهذا الستر الذهبى الذى يكسو الغابة حين يهلّ الخريف على العالم !

وما أقربها إلى نور القمر وهو يجلّل شواطئ البحيرة !

وكأن شفتيه وهو يبتسم آخذتان فى أنشودة على وليمة عرس .

غير أنه كان حزيناً حزن الطائر القوى الجناح ، لا يريد أن يسمو فوق رفيقه وهو يحلّق .

رومانوس
الشاعر اليونانى

كان شاعراً، وكان لنا العين الرائية والأذن السامعة ، وعلى شفتيه كانت تجرى كلماتنا الصامتة، وبمس أصابعه كان يتحسس ما نعجز عن إحساسه .

وعن قلبه انطلقت محلّقة مغرّدة أناشيده التى لا تحصى نحو الشمال ونحو الجنوب .

وعلى متعرجات التلال كانت تلك الزهور القليلة المتناثرة تحوط خطاه وهو يتصعّدُ فى السماء .

وما أكثر ما رأيته ينحنى إلى الأرض يمسّ بيده نصال الأعشاب !

وفى نجوى القلب استمعت إليه يقول : أيتها النباتات الصغيرة الخضراء ، سوف لا يخلو منك ملكوتى ، كما لن يخلو من بلوط نيسان وأرز لبنان ، سواء بسواء .

وكان يحب كل جميل : وجوه الأطفال الخفرة، وتلك الأفاويه من مُرّ وكُندر التى تُحمل من الجنوب .

ولقد كان يحب الرمانة أو الكأس من نبيذ يقدم إليه فى أنس ومودة ،

يستوى فى ذلك أن يكون المُهدي غريباً طارئاً ، أو ربّاً من أرباب الدور الأثرياء .

كما أحب زهرات اللّوز ، ولقد رأيته يجمعها فى يديه ويغطى بوريقاتها وجهه ، وكأنه حين يفعل يعانق أشجار الدنيا جميعاً حُبّاً وهُياماً .

ولقد عرف البحر كما عرف السموات .

وتحدث عن لآلىء لها نور ليس من هذا النور ، وعن نجوم ليست تسمو عن نجوم ليلنا .

ولقد عرف الجبال كما تعرفها النسور .

وعرف الوديان كما تعرفها النهيرات والجداول .

وكان فى صمته الصحراء الموحشة .

وفى حديثه الحديقة المونعة .

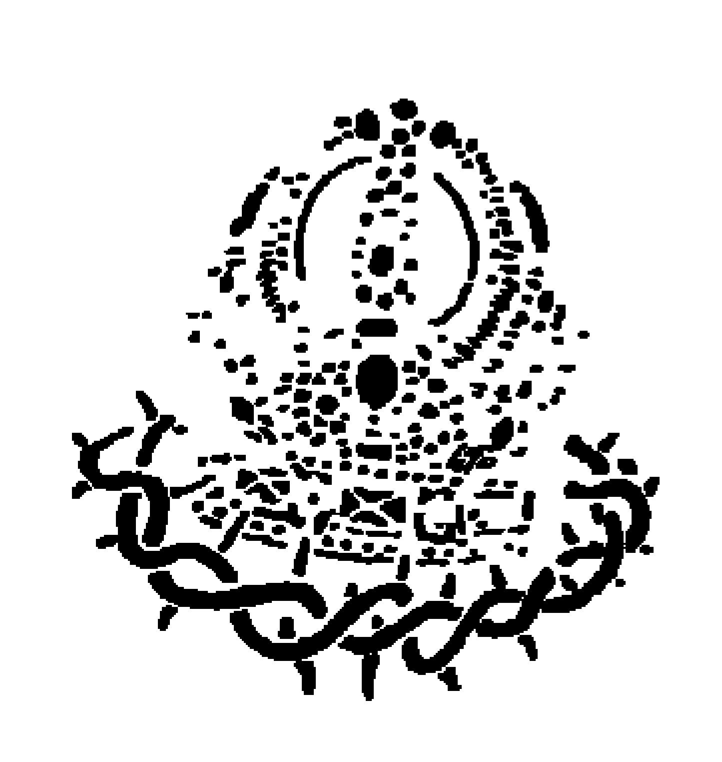
أجل . فلقد كان شاعراً اتخذ قلبُه خميلةً فيما وراء العُلا سَكَنَاً له .

وأناشيده التى كان يردّدها لنا ، كان يغنيها أيضاً لآذان أخرى ، ولأُناسٍ على أرض غير هذه الأرض ، حيث الحياة أبداً فتيّة ، وحيث الزمن كله فجر .

ولقد خيل إلىّ مرة أنى شاعر ، ولكنى حينما مثلت بين يديه فى بيت عنيه عرفت كيف يكون حال من يمسك بآلة لها وتر واحد أمام من الآلات كلها ملك يمينه ، إذ كان فى صوته ضحك الرعد وبكاء المطر وتطريب الأشجار ، وهى ترقص فى مهب الرياح .

ومنذ أن علمت أن قيثارتى لها وتر واحد ، وأن صوتى لا ينسج ذكريات الأمس كما لاينسج أمانى الغد ، طرحتها جانباً ، ولن أحرك بعدها لساناً بقول .

ولكنى لن أنفك مع السَّحَر أن أنصت ، ولسوف أستمع إلى هذا الشاعر الذى هو للشعراء أمير .



لاوى
أحد التلاميذ

فى أمسية يوم مرّ بدارى ، فاضطربت روحى بين جنبى . ولقد تحدث إلىّ يقول : إلىّ يالاوى ، ثم لتتبعنى .

ولقد تبعته ذلك اليوم .

وفى أصيل اليوم التالى طلبت إليه أن يلمّ بدارى وأن يكون ضيفى ، فجاز عتبة دارى ومعه صحابه ، ودعا لى ولزوجى وصغارى بالبركة .

وكان فى دارى ضيوف آخرون من العشّارين ورجال المعرفة ، وكانوا كلهم ينفرون منه بقلوبهم .

وعندما جلسنا جميعاً إلى المائدة انبرى واحد من العشّارين يسأل عيسى قائلا : أحقاً أنك أنت وتلاميذك لا تأبهون بالشرائع وأنكم توقدون النار يوم السبت ؟

وأجابه عيسى قائلا : فى الحق إننا نوقد النار يوم السبت ، وبودّنا لو أضرمنا السبت ناراً ، وأننا أحرقنا بعشا علناما عند الأيام كلها من يابس الهشيم .

وانبرى له عشّار آخر يسأله : لقد بلغنا عنك أنك تشارب الرعاع الخمر فى الحانات .

فأجاب عيسى : نعم حتّم علينا أن نهوّن على هؤلاء ، وما جئنا إلا لنشارك غير المتوّجين منكم والحفاة رغيفهم الذى يأكلون ، وكأسهم التى يشربون .

أجل . قليل ، بل جد قليل ، هؤلاء الذين لا ريش لهم ثم هم على ذلك يصارعون الريح لا يبالونها :

وما أكثر من لهم أجنحة قد كمل ريشهم ثم هم مع ذلك لا يبرحون أعشاشهم ! نُطعمهم جميعاً بمناقيرنا ، الخامل منهم والناهض .

* * *

ثم قال له عشّار آخر : ألم يبلغنى عنك أنك تدعو إلى حماية البغايا من بنات بيت المقدس ؟

وعندها رأيت فى وجه عيسى مرتفعات لبنان الشماء وإذا هو يقول :

إن هذا لهو الحق ، وفى يوم الحساب سوف ينهض هؤلاء النسوة أمام عرش الله ، وسوف تكون دموعهن لهن طهراً ، ولكنكم سوف تُسحبون فى الأغلال جزاء ما كنتم تقذفون الناس .

وما كان خسف بابل بفعل الساقطات فيها .

ولكن بابل استحالت إلى رماد حتى لا يرى المنافقون بياض النهار أمداً آخر .

* * *

ولقد حاول غير واحد من العشّارين أن يسأله ، ولكنى أشرت إليهم آمرهم بالسكوت لأنى كنت على يقين أنه سوف يدعهم فى حيرة من

أمرهم ثم أنهم كانوا ضيفي، وما كنت أحب لهم أن يهونوا ويذلّوا .

وعندما انتصف الليل ترك العشّارون داري وإن نفوسهم لكليلة حسرى.

وما إن أطبقت جفني حتى رأيت رؤيا ، أبصرت فيها سبع نسوة في حلل بيض وقفن محيطات بعيسى ، وقد عقدن أذرعهن على صدورهن وإن رؤوسهن لمنكّسات. ولقد أنعمت النظر في غياهب رؤياي فتبيّنت وجه واحدة من هؤلاء النسوة السبع ، وإذا هو يضيء على ظلامي .

لقد كان وجه ساقطة أعرفها من ساقطات بيت المقدس ، وعندها فتحت عيني ونظرت إليه ، فإذا هو يبتسم إليّ وإلى الأخريات اللائي لم يكن قد تركن المائدة :

ثم أطبقت جفني ثانية فرأيت نوراً ، ورأيت في النور سبعة رجال في ملابس بيضاء ، واقفين حوله ، وتبيّنت وجه واحد منهم ، فإذا هو وجه هذا السارق الذى صُلب فيما بعد إلى يمينه .

وفي وقت متأخر خرج عيسى وأصحابه يضربون في طريقهم .



أرملة من الجليل

كان ابنى هو البكر وما ولدت غيره ، وكان يعمل فى حقلنا ، وكان بذلك راضياً ، إلى أن سمع بذلك الرجل الذى يدعى عيسى يتحدث إلى الجماهير . عندها تغيّر ابنى فجأة وكأن روحاً غريبة ضارة خالجت روحه :

فهجر الحقل والبستان كما هجرنى أيضاً ، وأصبح لا نفع عنده ، أضحى واحداً من الأفاقين .

فلقد كان عيسى الناصرى بليّة من البلايا ، فهل من دأب الرجل الطيب أن يفرّق بين الابن وأمه ؟

وكان آخر ما قاله لى ابنى : إنى ذاهب مع تلميذ من تلاميذه إلى البلاد الشمالية ، فلقد أصبحت حياتى وقفاً على الناصرى ، ولقد ولدتنى وإنى لك على هذه لمن الشاكرين ، ولكنى أرى واجباً علىّ أن أذهب ، أوَلستُ مخلّفاً لك أرضنا الغنية وكل مالنا من ذهب وفضة ؟ فلن أحمل معى إلاّ هذه الحلّة وهذه العصا !

هكذا قال لى ابنى قبيل الرحيل .

والآن قد قبض الرومان والكهنة على عيسى وصلبوه ، وحسناً فعلوا :

إن الرجل الذى يفرّق بين الأم وابنها بعيد أن يكون من الأتقياء الورعين .

وإن الرجل الذى يدفع بأبنائنا إلى بلاد الكفرة، بعيد أن يكون لنا صديقاً .

وإنى لعلى يقين بأن ابنى لن يرجع إلىّ ، لقد رأيت ذلك فى عينيه ، و إنى لهذ أبغض عيسى الناصرى الذى كان سبباً فى أن أعيش وحيدة على حقل لم يظفر بعده بمن يحرثه ، وبستان جفت شجيراته .

إنى لأبغض كل الذين يثنون عليه .

ومنذ أيام غير كثيرة قالوا لى : إن عيسى قال مرة : إن من يستمعون إلى قولى ويتبعوننى هم لى بمنزلة الأب والأم والإخوة . ولكن لِمَ يَدْعو الأبناء لهجر أمهاتهم كى يقتفوا خطاه ؟

وكيف ينسى ابنى لبن ثديى طامعاً فى نبع لمّا يذق ماءه بعد ؟

وكيف يهجر دفء ذراعىّ إلى البلاد الشمالية حيث البرد والوحشة ؟

نعم ، إنى أكره الناصرى وسوف أكرهه إلى آخر حياتى ، لأنه سلبنى ابنى البكر ... ابنى الوحيد .

يهوذا
قريب عيسى

فى ليلة من ليالى شهر أغسطس كنا مع هادينا فى مرج غير بعيد من البحيرة ، وكان أسلافنا يسمون هذا المرج : مرج الجماجم .

وكان عيسى قد اضطجع على الأعشاب وأخذ يتطلع إلى الكواكب، وفجأة دلف إلينا رجلان يندفعان نحونا وهما يلهثان .

وكانا كأنهما فى محنة . فوقعا على قدمى عيسى منطرحين ، فانتصب عيسى واقفاً وهو يقول : من أين جئتما ؟

فأجابه أحدهما : من عند مكاريوس .

وتطلع إليه عيسى قلقاً وهو يقول : وما علمكما عن يوحنا ؟

فقال الرجل : لقد ذبحوه اليوم . . لقد ضربوا عنقه وهو فى زنزانته .

عندها رفع عيسى رأسه إلى السماء ، ثم خطا مبتعداً عنا خطوات قليلة ، وبعد برهة عاد ووقف بيننا ، ثم قال : لقد كان بوسع الملك أن يذبح النبى قبل يومنا هذا .

حقاً إن الملك كان يطلب رضى رعاياه . إن الملوك فى سالف العصر لم يكونوا على مثل هذه الحال من التريث فى تمكين قاطعى الرقاب من رؤوس الأنبياء .

ما حزنت ليوحنا ، ولكني حزنت لهيرودس الذى أمر بالسيف أن يهوى .

يا له من ملك مسكين أشبه شىء بالحيوان يُشدّ ويُقاد فى أنشوطة وحبل! ويالهم من حكام توافه مساكين أولئك قد ضلّوا فى غياهب أنفسهم فتعثّروا وانكفئوا على وجوههم . وماذا أنت راجٍ من البحر الراكد غير أسماك ميتة ؟

ما نقمت على الملوك ، فخلّوا بينهم وبين الناس يحكموهم ، على أن يكونوا فوق الناس عقلا .

ثم نظر عيسى إلى هذين الوجهين الحزينين ونظر إلينا ، ومضى فى حديثه يقول :

لقد ولد يوحنا جريحًا ، ولقد جرت دماء جراحه مندفقة مع كلماته .

كان ينطوى على حرّية لم تتحرّر بعد من قيد نفسها .

وكان صبوراً ذا أناة ولكن مع ذوى القصد والعدل ، ولقد كان حقًّا هذا الصوت المدوّى فوق أرض الصُّم ، وقد أحببته فى محنته وفى وُحدته .

كما أحببت فيه شممه حين جاد برأسه للسيف بدلا من أن يلامس بهذا الرأس الرغام .

وإنى أقول لكم حقًّا : إن يوحنا بن زكريا كان الأخير من نوعه ، وكما ذُبح آباؤه من قبل ذُبح هو بين عتبتى الهيكل والمذبح .

ثم خطا عيسى بعيداً عنا ، ولم يلبث أن عاد إلينا وقال :

منذ الأزل كانوا يعقدون المحاكمات ويدينون امرأً لم تُكتب له الحياة بعد ، ويقضون بموته قبل أن يقترف جريمة .

سوف يحيا ابن زكريا إلى جوارى فى ملكوتى ، وسوف يكون يومه ممتداً .

ثم تحوّل إلى تلميذىْ يوحنا يقول لهما :

« لكل فِعل غده . وقد أكون أنا الغد لهذا الفعل .

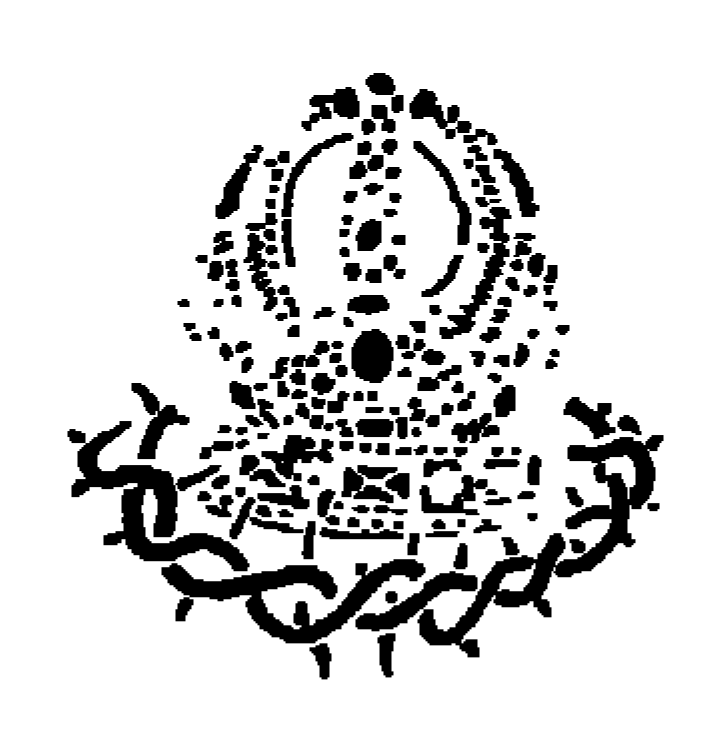
ارجعا إلى أصدقاء أصدقائى وقولا لهم : سأكون معهم دوماً » .

وهناك انفصل عنا الرجلان ومضيا وقد تخففّا من الهمّ .

ثم عاد عيسى فاضطجع على العشب ومد ذراعيه وأخذ يتطلع إلى الكواكب من جديد .

وكان الوقت متأخراً ، ولم أكن مضطجعاً بعيداً عنه .

وكنت راغباً فى الراحة . غير أن يداً كانت تدق على باب نومى ، فاستلقيت يقظاً إلى أن هتف بى عيسى مع الفجر لنمضى على الطريق .



رجل من الصحراء

كنت غريباً عن أورشليم ، وكنت قد جئت المدينة المقدسة لأشاهد الهيكل العظيم ، ولأقدم القرابين على المذبح ، إذ كانت زوجتى قد أنجبت لعشيرتى توأمين .

وبعد أن قدمت ماقدّمت من عطايا وقفت فى رواق المعبد أشاهد الصيارفة ، وأولئك الذين يبيعون الطير لمن يبغى أن يقدم قرباناً ، وأستمع إلى الأصوات الصاخبة فى الساحة .

وفيما أنا واقف ظهر فجأة رجل وسط الصيارفة وباعة الطير .
وكان رجلا جليلا مهيباً طلع علينا فى خفة .

وكان يمسك فى يده بحبل من جلد الماعز ، وقد أخذ يقلّب موائد الصيارفة ويضرب باعة الطير بالحبل ، وسمعته يقول : فى صوت جهورى : « أسلموا هذا الطير إلى السماء التى هى عشّه » .

وأخذ الرجال والنساء يفرّون أمام وجهه ، وكان يمرّ بينهم كما تمرّ الريح العاصفة فوق تلال من الرمال :

حدث هذا كله كلمح البصر . وسرعان ما خلت ساحة المعبد من الصيارفة ، بينما وقف هذا الرجل وحده ، ووقف على قرب منه أتباعه .

وهنا حانت منى التفاتة فرأيت رجلا آخر فى رواق الهيكل ، فاتجهت



نحوه وقلت له : سيدى ، من هذا الرجل الذى يقف وحده وكأنه هيكل آخر ؟

وأجابنى : هذا عيسى الناصرى . . . نبىّ ظهر حديثًا فى الجليل . والناس هنا فى أورشليم يبغضونه جميعًا .

فقلت : إن قلبى من القوة بحيث يكون ظهيراً لصوته ، ومن الاستسلام والخضوع بحيث يرتمى عند قدميه .

وتحول عيسى إلى أتباعه . . وكانوا فى انتظاره ، وقبل أن يبلغهم طارت ثلاث حـَمـَامات من حمام الهيكل عائدة إليه ، فهبطت إحداهن على كتفه اليسرى ، بينما هبطت الأخريان عند قدميه ، فربـّت على كل منها فى حنان ، ثم مضى ، وكانت كل خطوة من خطاه تطوى فراسخ وفراسخ . ألا فلتخبرنى الآن أية قوة تأتـّت لهذا الرجل كى يهاجم مئات من الرجال والنساء دون مقاومة ؟

ولقد حـُدِّثت أنهم جميعًا يبغضونه ، ومع ذلك فإن واحداً منهم لم يتصدّ له ذاك اليوم . أتراه انتزع مخالب الحقد وهو فى طريقه إلى ساحة الهيكل ؟



بطرس

ذات يوم ، وقد آذنت الشمس بمغيب ، سار بنا عيسى إلى قرية بيت صيدا ، وكنّا رفقاء أكدّهم السير وعلاهم غبار الطريق .

وانتهينا إلى بيت عظيم يتوسط حديقة ، وقد وقف صاحبه بالقرب من الباب .

فقال له عيسى : إن هؤلاء القوم قد حفيت أقدامهم وأنهكهم التعب ، فهلا أذنت لهم فى أن يناموا فى بيتك ، فلقد عضّهم الليل ببرده ، وهم فى حاجة إلى الدفء والراحة .

فقال هذا الرجل الغنىّ : لن يناموا فى بيتى .

فقال له عيسى : هلاّ أبحت لهم أن يناموا فى الحديقة ؟

وأجاب الرجل : كلا ، لن يناموا فى حديقتى .

عندها التفت عيسى إلينا وقال : « هذا هو ما سيطالعكم به الغد ، وما أشبه حاضركم بمستقبلكم ، ولسوف توصد الأبواب كلها فى وجوهكم ، حتّى الحدائق التى ترقد فى ظل نجوم السماء لن يكون لكم فيها مضطجع . فإن صبرت أقدامكم للطريق ومضت فى إثرى فلعلّكم واجدون طعاماً وفراشاً ، وواجدون أيضاً خبزاً ونبيذاً .

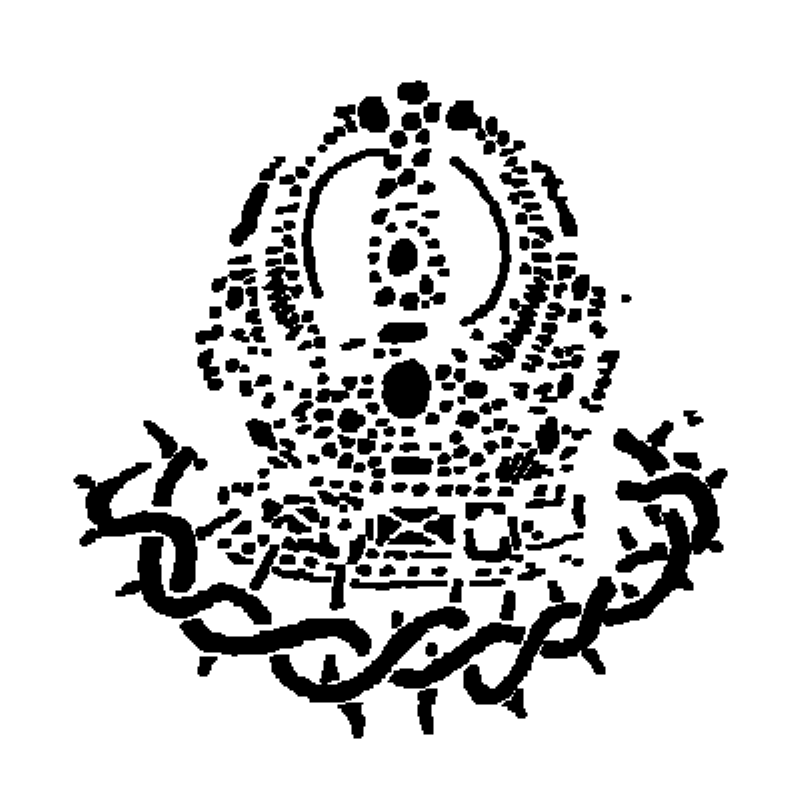
وإذا قُدر لكم ألاّ تجدوا شيئاً من هذا كله فلا تنسوا عندئذ أنكم

عبرتم معى مفازة من مفازاتى .

هلمّوا معى إلى الأمام » .

هنالك أخذ القلق يساور هذا الرجل الغنى ، واربد وجهه وهمهم بينه وبين نفسه بكلمات لم تبلغ مسمعى ، ثم انفصل عنا منقلباً إلى حديقته .

ومضينا نحن فى إثر عيسى على الطريق .



مـلاخى البابلى الفلكى

تسألنى عن معجزات عيسى .

فاعلم أنه على رأس كل ألف سنة تلتقى الشمس والقمر والأرض وأخواتها السيارات جميعـًا على خط مستقيم تأتمر معـًا برهة من الزمن .

ثم تنتثر من بعدُ مشتدةً لتبقى مترقـّبة مرور ألف سنة أخرى .

فليس ثمة معجزات غير اختلاف الفصول ، غير أنه لاعلم لك ولا لى بها ، فماذا لو استحال الفصل منها إنسانـًا يستوى أمامنا ؟

لقد تلاقت فى عيسى عناصر أجسامنا وجواهر أفكارنا وفق قضاء قد قـُدر ، وأصبح كل ما لم يكن يحتويه زمان قبل مجيئه قد احتواه عيسى وأصبح من هذا الزمان .

حدّثوا أنه منح الأعمى النور ، والمُقعد السـّعى ، وأنه خلـّص الممسوسين من مسّ الشيطان .

وقد لا يكون العـَمـَى غير عارض مُعتم ينقشع بعارض متألق ، وقد لا يكون تيبـّس العضو إلاّ عن فتور قد تـُسعفه قوةٌ من نشاط ، وقد تـَخـْرُج الشياطين — تلك العناصر المبلبلة فى حياتنا — على أيدى ملائك الأمن والسكينة .

وحدّثوا أنه أحيا الموتى . فإن اسْطـَعـْتَ أن تحدّثنى عما هو الموت ،

أخبرتك عما تكون الحياة ؟

وفى الحقل أنعمت النظر إلى جوزة البلوط ، فوجدتها لا حراك بها وبدا لى أنْ لا غناء فيها . وما إن حلّ الربيع حتى رأيت تلك الجوزة امتدت لها جذور وعلت لها فروع وأخذت تصبح شجرة من شجرات البلوط تنمو صعداً إلى الشمس . وأنت حقًّا سوف تعدّ هذا من الخوارق ، غير أنها خوارق تقع ألف ألف مرة بين سِنَةِ الخريف ويقظة الربيع .

وما بالها لا تأخذ صورتها فى قلب الإنسان ؟

أليست الفصول خليقة أن تلتقى فى أيدى المطهّرين أو على شفاههم ؟

وإذا كان الله قد ألهم الأرض أن تحتضن البذرة عندما تبدو هذه البذرة ميتة ، فما له لا يلهم قلباً من القلوب أن ينفث الحياة فى قلب آخر يبدو ميْتا ؟

* * *

ولقد تحدّثت إلى الآن عن معجزات لا أعدّها شيئاً إلى جانب تلك المعجزة الكبرى التى هى هذا الإنسان نفسه : عابر السبيل الذى جعل من خَبَثى ذهباً ، والذى علّمنى كيف أحب من يبغضنى ، فجلب إلىّ بما فعل الراحة ، وأمدّنى فى نومى بأحلام عذاب .

تلك هى معجزة حياتى أنا .

فلقد كانت روحى عمياء عرجاء ، واستحوذت علىّ أرواح قلقة وكنت من الأموات .

وإنى الآن لأرى فى جلاء، وأسير على قدمين سواء ، قد بلغت الأمن وأصبحت أحيا شاهداً على وجودى ، مفصحاً عنه مع ساعات النهار :

وما أنا واحد من أتباعه؛ ولست غير فلكى عجوز يهيم بخياله فى أجواز الفضاء مرة كل فصل ، يريد أن يستطلع ما هنالك من نظام وخوارق .

ولقد أدركت غسق حياتى ، ولكنى حين أريد أن أرى الفجر أتطلع إلى شباب عيسى .

وسوف يظل الكهل إلى الأبد يرقب الشباب :

وإنى لأجدنى اليوم على علم يجذبنى إلى البحث عن الرؤى .



فيلسوف

حينما كان معنا تطلّع إلينا وتفحّص عالمنا وفى عينيه دهشة، إذ لم تكن عيناه قد غشيتهما غشاوة الأعوام ، فكان كل ما يرى يجلوه نور شبابه .

ومع أنه عرف الجمال ، فقد كان أبداً مأخوذاً بجلاله وسكينته ، وتمثّلت له الأرض كما تمثّلها الإنسان الأول فى يومه الأول .

ونحن الذين تبلّدت منا الحواس ننظر فى رابعة النهار فلا نرى شيئاً ، ونمدّ آذاننا فلا نسمع ، ونبسط أيدينا فلا نلمس .

وينطلق كل ما فى بلاد العرب من بخور فنمضى فى طريقنا دون أن نشمّه .

ويؤوب الحارث من حقله مع الغروب فلا نراه ، كذلك لا نسمع مزمار الراعى وهو يسوق غنمه إلى الحظيرة ، ولا نمدّ أذرعتنا لندرك مغرب الشمس ، ولم تعد خياشيمنا لهفى لورود الشعرون .

أجل . فلسنا من سمو الروح بحيث نمجد ملوكاً لا ممالك لهم ، أو أن نسمع إلى صوت القيثارة إلاّ إذا جذبت أيدينا أوتارها ، أو أن نتطلع إلى الأطفال يلعبون فى حرجات الزيتون وكأنهم شجيرات من الزيتون صغيرة .

ولا بد لنا من كلمات تجرى على شفاه من لحم ، وإلاّ عدّ بعضنا بعضاً صمّاً بكما .

وفى الحق إننا نحملق ولا نرى ، ونصيخ ولا نسمع ، ونطعم ونشرب ولكننا لا نستمرئ .

وهذا فرق ما بين عيسى الناصرى وبيننا .

فإن حواسه كانت تتجدّد مع الأيام ، كما أن الدنيا ظلت تتراءى له دائماً فى ثوب جديد .

ولم تكن تمتمة الطفل عنده أقل إفصاحاً من صياح البشر أجمعين ، على حين أنها لنا ليست إلاّ تمتمة لا تبين .

وجذور الشقائق كانت فى حسانه تمتد مدفوعة بالشوق إلى بارئها ، وهى فى تقديرنا ليست إلاّ جذوراً .



أوروبا
الشيخ الناصرى

كان غريباً على بيئتنا ، وكانت حياته محجّبة بحجب كثيفة ولم يسلك سبيل الربّ ، ولكنه مضى فى طريق الشر والرذيلة .

كانت طفولته تمرّداً وعصيانا ، فصدّ عما غذّتنا به طبيعتنا من لبن سائغ .

وكان شبابه مضطرماً اضطرام الحشائش اليابسة فى جنح الليل .

وحين بلغ مبلغ الرجال كان علينا جميعاً حرباً .

ومثل هؤلاء الرجال حملت بهم أمهاتهم حين انحسار الرحمة من بنى الإنسان ، وولدوا مع العواصف المهلكة المدنّسة ، وفى هذه العواصف يعيشون يوماً ثم يبيدون إلى أبد أبيد .

ألا تذكره صبياً متعجرفاً ، يجادل الشيوخ من علمائنا ويهزأ بأقدارهم ؟

ثم ألا تذكره شاباً حين كان يسعى بمنشاره وإزميله ، لا يريد أن يصحب أبناءنا ولا بناتنا أيام الفراغ ، ويرغب فى أن يمضى وحيداً .

كان لا يحيّى من يحييه وكأنه يعلوهم قدراً ، ولقد قابلته أنا نفسى مرة فى الحقل وحيّيته ، فما زاد على أن ابتسم لى ، وفى بسمته تبيّنت التعالى والازدراء .

وبعد ذلك بوقت غير بعيد ذهبت ابنتى فى صحبة رفيقاتها إلى الكرم لتجمع العنب . ولقد تحدثت إليه هى الأخرى ، فما أجابها .

إنما تحدث إلى جامعى العنب جملة ، كأنما ابنتى لم تكن واحدة بينهم .

وحينما اعتزل قومه وهام على وجهه لم يعد غير ثرثار ، وكان لكلماته وقع المخلب فى أجسادنا ، ولا يزال رجع صداها تعيه ذاكراتنا ألماً وهماً .

وما كان يذكرنا ولا يذكر آباءنا ولا أجدادنا إلا بسوء، وكان لسانه ينفذ إلى صدورنا نفاذ السهم المسموم .

على هذا كان عيسى .

ولو كانت المقادير جرت بأن يكون لى ابناً ، إذاً لألحقته بالجيوش الرومانية الذاهبة إلى بلاد العرب ، وضرعت إلى القائد أن يضعه فى الصف الأول من المعركة ليصوب إليه العدو سهامه ويخلصنى من بذاءته .

ولكنى لا ولد لى ، ولعلّى خليق أن أشعر لهذا بالحمد .

فكيف تكون حالى لو أن ابناً لى استحال عدواً لأهله ، وتعفّر شعرى الأشهب بتراب العار ، ولطّخت لحيتى البيضاء بالصّغار ؟

نيقوديموس الشاعر
أقل شيوخ مجلس اليهود - السنهدرين - سِنّا

ألا ما أكثر الحمقى الذين يقولون : إن عيسى وقف حجر عثرة فى طريقه هو ، وعارض نفسه ، وأنه لم يدرك كنه ما يريد ، وفى عَوَزِه هذا إلى المعرفة التبست عليه الأمور .

وكثيرة حقّاً هذه البُوم التى لا تعرف غير ما يحكى نعيقها .

وإنى وإياك لنعرف هؤلاء المزيّفين للقول ، الذين لا يعظّمون إلاّ من هو أكثر منهم زيفاً ، هؤلاء الذين يحملون عقولهم فى سلال إلى الأسواق يبيعونها أولَ من يساومهم عليها .

وإنّا لنعرف هؤلاء الأقزام الذين يحطّون من شأن العمالقة ، وإنا لندرى ما العشب قائلة عن شجرة البلوط والأرز .

وإنى لأرثى لهم لقصورهم عن أن ينهضوا إلى الذُّرى .

كما أرثى لتلك الأشواك اليابسة وهى تنفس على شجرة الدّرداء بقاءها على مرّ الفصول .

ولكنه رثاء سوف لا يجلب لهم النور ، ولو شفعته الملائكة أجمعون بالأسى والحسرة .

وإنى لأعرف هذا «الخيال» الذى يُقام فى الحقول تخفق أهدامه البالية

بين أعواد القمح ، وهو مع هذا يُعَدّ من الأموات لدى القمح وعند الريح المدوّية ، وإنى لأعرف هذا العنكبوت ، وهو لا جناح له ، ينسج الأعشاش لكل طائر بجناحين .

وإنى لأعرف هؤلاء الماكرين والزامرين والطبّالين الذين لا يقوون فى غمرة جلبتهم على أن يستمعوا للبلابل ولا لنسمة الشرق فى الحرجات .

وإنى لأعرف هذا الذى يجدّف ضد مسيل المجرى ، وما هو ببالغ المنبع أبداً .

وهذا الذى يجرى مع مسيل الأنهار ، وما هو بمقتحم البحر أبداً .

وإنى لأعرف هذا الذى يتقدّم إلى بانى الهيكل بيدين لا تحذقان الصناعة ، وحين لا يُرغب فى يديه هاتين يقول فى أعماق نفسه : سوف أخرّب كل مشيد .

أعرف هؤلاء جميعاً . إنهم الرجال الذين لايسيغون قول عيسى ذات يوم : لقد جئتكم بالسلام ، وقوله فى يوم آخر : لقد جئت بالسيف .

وما أعجزهم عن أن يفهموا أنه يعنى صدقاً : إنى جئت بالسلام لمن طابت نواياهم ، وجعلت حد السيف بين هذا الذى يبغى سلماً وبين هذا الذى يبغى حرباً .

وإنهم ليعجبون لمن يقول : « إن ملكوتى ليس على هذه الأرض » . ثم إذا هو يقول : «أعط ما لقيصر لقيصر» . وهم لا يعرفون أنهم إذا رغبوا حقاً

فى أن يُخلَى بينهم وبين العالم الذى إليه يشتاقون ، فعليهم ألا يغالبوا هذا الحارس القائم على منافذ شهواتهم ، بل خليق بهم أن يسخوا عن رضى ليدخلوا تلك المدينة .

هؤلاء هم الرجال الذين يقولون : لقد كان يدعو إلى التسامح والشفقة والحب البنوى ، على حين لم يُلق بالاً لأمه وإخوته عندما طلبوه فى شوارع بيت المقدس .

وهم لا يعرفون أن أمه وإخوته كانوا يودّون أن يعودوا به إلى حانوت النجار مدفوعين بشفقتهم عليه ، على حين كان هو يفتح عيوننا لتطالع فجر يوم جديد .

ولقد كان يودّ أمه وإخوته أن يعيش فى ظل العدم . وكان هو نفسه يصارع الموت على ذلك التلّ ، من أجل أن يحيا فى ذاكراتنا التى لا تغفو.

وإنى لأعرف حيوان الخلد الذى يحفر مساربه فتنتهى به إلى لاشىء ، ألا يشبهه أولئك الذين يدّعون على عيسى أنه يعظم نفسه فى قوله إلى الجماهير :

« إنى أنا الطريق إلى الخلاص وإنى بابه » . وكذا فى تسميته نفسه « بأنه الحياة وأنه البعث » .

وما أفصح عيسى عن غير ما يفصح عنه شهر مايو فى أوْجه .

ألأنّ حديثه كان شديد النّصوع يقال : إنه لم يكن الحق الأبلج ؟

ولقد قال حقاً : « إنه طريق القلب وحياته وبعثه » ، وأنا نفسى شاهد

حيّ على صدقه . ألا تذكروني ؟ إنني أنا نيقوديموس ، الذي لا يدين بشيء غير القوانين والشرائع ، والذي عاش دوماً لا يحيد عنها .

انظروا إليّ اليوم : رجل يمضي ساعياً مع مولد الحياة ويتهلّل ضاحكاً مع مطلع الشمس ، منذ اللحظة الأولى التي تَبَسْسِم فيها على الجبال إلى أن تتوارى بالحجاب خلف التلال .

فما بالكم تستوقفكم كلمة الخلاص ؟ إني أنا نفسي نلت خلاصي به .

وما أنا بمُلْقٍ بالاً لما سيحلّ بي في غد ، فلقد وجدت أن عيسى قد بعث الحياة في منامي وجعل من أحلامي البعيدة صحابي ورفاقي على الطريق .

أتحسبون أنني نزلت عن بعض قدري لأني آمنت برجل أعلى مني قدراً ؟

لقد انكشف عني ما يحجبني من لحم وعظم حين تحدث إليّ شاعر الجليل ، وأصبحت في قبضة الروح تسمو بي إلى الذُّرى : فلما بلغت أجواز الفضاء انضم جناحاي على أغنية شوق . وعندما هبطت من الفضاء ، وقُصَّت قوادمي في بيت اليهود ، ظلت أعضائي وجناحاي غير المريشين تحفظ تلك الأغنية وترعاها . وما هذه الأرض الدنيا ، بجَدْبها وقحطها بقادرة على أن تنتزع عني كنزي .

وحسبي الآن ما قلت ، دع الأصمّ يغيِّبْ دويّ الحياة في أذنيه الهامدتين . فإني بأنغام قيثارته لراضٍ ، تلك القيثارة التي أمسك بها وعَزَف عليها ويداه مدقوقتان بالمسامير تنزفان دماً .

يوسف الرامي
بعد عشر سنوات

كان يجرى فى قلب الناصرى نهران : نهر الانتماء إلى الله ، الذى كان يدعوه أبا ، ونهر التدلـّه والوله ، الذى كان يسميه ملكوت السموات العلا .

وكنت فى خاوتى أفكر فيه وأمضى مع هذين النهرين فى قلبه . وعلى شاطئ أولهما وجدت روحى ، وكانت هذه الروح حيناً ذليلة متسوّلة تهيم على وجهها ، وحيناً أميرة فى بستانها .

ثم مضيت مع النهر الآخر فى قلبه ، وفى سبيلى وجدت رجلا يُضرب ويُسلب منه ذهبه ، وكان على هذا يبتسم ، ثم مضيت بعيداً فرأيت هذا السّارق الذى كان يسرقه ، وقد جمدت الدموع على خدّيه .

وعندها استمعت إلى خرير هذين النهرين فى صدرى أيضاً ، وكنت بذلك فرحاً .

وعندما زرت عيسى ، قبل اليوم الذى ألقى القبض عليه فيه بيلاطس البنطى والشيوخ ، تكلمنا طويلا وسألته كثيراً . ولقد أجابنى على أسئلتى فى رقة ولطف ، وما إن تركته حتى تبينّت أنه لدنيانا السيّد المرشد .

ما أطول ما كان منذ أن سقطت شجرة الأرز ، غير أن عبيرها لا يزال باقياً ، ولن ينفك إلى الأبد ينبعث إلى جهات الأرض الأربع !

جرجس البيروتى

كان هو وصحابه فى غيضة من الصنوبر وراء سور لى .

ولقد وقفت قريباً من السور أصغى ، فعرفت من هو ، إذ كانت شهرته قد طبّقت هذه الشطآن قبل أن يُلم هو بها .

وعندما أمسك عن الكلام اقتربت منه وقلت : هل لك يا سيدى أن تأتى أنت وهؤلاء الرجال فأشرُف بكم وتشرف بكم ظُلّتى .

فابتسم إلىّ وقال : فليكن غير هذا اليوم يا صديقى ، فليكن غير هذا اليوم .

وإن كلماته لتفيض سعادة وبركة ، وإن صوته ليشتمل علىّ اشتمال الرداء فى الليلة القارسة .

ثم التفت إلى صحابه يقول لهم : هاكم رجلا لا يجدنا غرباء وما رآنا قبل اليوم ، ولكنه يدعونا إلى عتبة بابه .

وما فى مملكتى حقّاً من غريب ، حياتنا هى حياة الآخرين ، مُنحناها لتكون وسيلتنا إلى تعرف الناس كافة ، وفى ظل هذه المعرفة يكون حُبنا لهم .

وهل أعمال الناس إلا أعمالنا ، ما استتر منها وما ظهر؟ إنى أهيب بكم ألاّ تكونوا نمطاً بعينه ، بل أحرى بكم أن تكونوا أنماطاً عدّة : ليكن منكم ربّ الدار ، ومن لا دار له ، والحارث ، وهذا العصفور الذى



يلتقط الحبّ قبل أن يستكنّ فى الأرض ، والواهب الذى يهب عن امتنان ، والمتقبل للعطاء الذى يتقبله فى عزة وإحساس بمعرفة سابقة .

ليس جمال الأيام فيما تراه أنت وحدك ، بل فيما يراه أيضاً غيرك من الناس .

ولهذه اخترتكم من بين هؤلاء الكثيرين الذين اختارونى .

ثم التفت إلى ثانية وهو يبتسم وقال : وإنى لأحدثك أنت الآخر هذا الحديث ، وأنت الآخر سوف تذكره .

وهنا توسلت إليه وأنا أقول : هل لك يا سيدى أن تنام ببيتى .

فأجابنى : إنى لأعرف قلبك . . ولقد زرت بيتك الأكبر .

وعندما أخذ يسير بعيداً عنا بين تلاميذه قال : طاب ليلك ، وعسى أن يتسع بيتك لكل من يهيمون على وجه الأرض .



مريم المجدلية

كان فمه كأنه قلب رُمانة ، وكانت الظلال فى عينيه تنم عن عمق ، وكان وديعاً وداعة الرجل المعتز بقوّته .

وكنت أرى فى منامى ملوك الأرض قد وقفوا خاشعين بين يديه ، وبوُدّى أن أتحدث عن محيّاه ، ولكن أنّى لى ذلك ؟

لقد كان يحكى ليلاً لا يغشاه ظلام، ونهاراً لا تعكّره جلبة النهار. الهمّ يغشى وجهه والبشر يعلوه .

وإنى لأذكر بيّناً كيف رفع يده مرة إلى السماء فبدت أصابعه فى تفرّقها ، وكأنها أغصان شجرة دردار .

وإنى لأذكره وهو يضرب فى المساء بخُطاه ، لا يمشى كما يمشى الناس : إنه هو نفسه طريق فوق الطريق ، كأنه سحابة تُغشّى الأرض وتريد أن تساقط عليها مطراً لتُنعشها .

ولكنى عندما وقفت بين يديه أتحدث إليه ، كان رجلا من الرجال ، وكان وجهه أقوى من أن أتطلع إليه ، إذ ذاك قال لى : ماذا تريدين يا مريم ؟

وما حرتُ جواباً ، وانطوت جوانحي على ما أُسرّ ، وسرى الدفء في قلبي .

وإذ لم أقو على الصمود لسَنَى ضوئه بعدُ انكفأت أمضي بعيداً ، لا مُستخزية ولكن في خجل ، وبودّي لو خلوت إلى نفسي وأصابعه فوق نياط قلبي .



من يوثام الناصري
إلى رجل من أهل رومه

أيها الصديق ، إنك كغيرك من الرومان تؤثر أن تتخيل الحياة لا أن تحيا الحياة ، وتؤثر أن يكون لك السلطان فى الأرض على أن يكون لروحك سلطان عليك .

وتختارون أن تقهروا الأجناس لا تبالون أن تلعنكم ، على أن تبقوا فى رومه سعداء ناعمين .

لا فكر لكم إلاّ فى جيوش تزحف وسفن تمخر البحار . أنّى لكم إذن أن تلقنوا عن عيسى الناصرى ! هذا الرجل الضعيف الوحيد ، الذى جاء فى غير جند ولا سفن ، ليقيم مملكته فى القلوب ، ويشيد حكمه فى فضاء النفس المطلق .

أنّى لكم أن تلقنوا عن هذا الرجل غير المحارب الذى جاء مؤيداً بما فى الفضاء المطلق من قوة راسخة !

وما كان ربّاً ، ولكنه كان رجلا منكم ، اجتمعت فيه رائحة المرُّ المتصاعدة من الأرض فامتزجت بعبير السماء ، وفى كلماته تضامّت تَمتمتنا بهمسات الغيب ، وفى صوته نستمع إلى أغنية لا نُدرك مداها .

أجل . لقد كان عيسى رجلا ولم يكن رباً ، وفى هذه يكمن عجبنا وتكمن دهشتنا .

ولكنكم — معشرَ الرومان — لا تأبهون إلاّ بالأرباب ، وليس لإنسان أن يثير دهشتكم . وأنتم لهذا لم تلقنوا عن الناصرى ، فهو موكول إلى كمال العقل وشبابه، وأنتم مردودون إلى وهنه وشيخوخته .

ولقد كتبت لكم علينا السيادة اليوم ولكنا ننتظر بكم يوماً آخر . وما يدرينا لعل هذا الرجل الذى لا جند له ولا سفن تكون له السيادة فى غد !

ونحن الذين نستجيب إلى الروح سنبذل بدل العرق الدم ، ونحن نجهد فى إثره ، ولن تكون رومه إذ ذاك إلا هيكلا أبيض تلفحه الشمس .

سوف نعانى كثيراً ، غير أننا سوف نصبر لهذا وسوف نعيش ، ولكن لا مفر لرومه من أن تنهال ترابًا .

وإذا ما قُدِّر لرومه — عندما تذل وتهون — أن تدعوه باسمه فسوف يُلقِى بالا لدعائها . وسوف ينفخ فى أطلالها بروح جديدة تنهض بها ثانية مدينة بين المدن على وجه الأرض .

ولكنه فاعل هذا دون فيالق ، ودون أرقّاء على مجاديف سُفُنه . . . بل سيكون وحيداً .



أفــرايم

رجل من أريحــا

وعندما عاد ثانية إلى «أريحا» سعيت أبحث عنه وقلت له : سيدى ، غداً سيتخذ ولدى زوجة ، وإنى أسألك راجياً أن تحضر حفل العرس فتولينا شرفاً ، كذلك الشرف الذى أوليته ذلك العرس فى بلدة قانا من منطقة الجليل.

فأجابنى : « حقاً إننى كنت مرة ضيفاً فى وليمة عرس ، ولكنى لن أكون هذا الضيف ثانية ، إنى أنا الآن العريس » .

فقلت له : إنى أضرع إليك أيها السيد أن تحضر حفل عرس ابنى ، فتبسّم وكأنه يريد تعنيفى ثم قال : « ولم تضرع إلىّ ؟ أليس عندك كفاء من نبيذ ؟ »

فقلت : إن قدورى ملأى ياسيدى ، وإنى على ذلك متوسّل إليك أن تحضر حفل عرس ابنى .

عندها قال : « من يدرى ، فقد أحضر ، قد أحضر حقاً ، هذا إذا كان قلبك بمكان المحراب من هيكل جسمك . »

وفى الغد تزوج ابنى وما حضر عيسى حفل العرس . وقد كان ضيوفنا

كثْرة ، غير أنى لم أحس أن إنسانًا ألمّ بنا . وفى الحق الصراح لقد كنت أنا نفسى — من يرحّب بالضيوف — غير حاضر هناك .

لعل قلبي لم يكن محرابًا حين دعوته ، أو لعلى كنت أبغى معجزة أخرى :



باركا
تاجر من صور

إني لأعتقد أنه لا الرومان ولا اليهود فهموا عن عيسى الناصرى ، لا ، ولا حواريوه الذين يبشّرون باسمه اليوم .

فلقد ذبحه الرومان ، وكان ذلك إثما .

وأراد الجليليون أن يتخذوه إلهًا ، وكان ذلك ضلالا .

كان عيسى قلب الإنسان .

ولقد ركبتُ البحار السبعة ، وقايضت الملوك والأمراء ، كما أخذت من المخاتلين والماكرين وأعطيت فى أسواق البلاد النائية ، غير أنى لم أجد رجلا ذا بصر بالتّجار كما كان عيسى . ولقد سمعته مرة يضرب هذا المثل :

« خلّف تاجر بلاده إلى أرض غريبة . وكان له خادمان ، فأعطى كل واحد منهما قبضة من ذهب وهو يقول :

كما سأخرج كذلك اخرجا أنتما سعياً وراء الربح ، ولتُوفيا المبادلة حقها ، ولتعلما أن عليكما أن تفيدا حين تعطيان وحين تأخذان .

وبعد عام عاد التاجر .

ثم سأل خادميه عما فعلا بذهبيهما .

فأجابه أولهما : انظر يا سيدى ، لقد اشتريت وبعت ، ولقد ربحت .

فأجابه التاجر : لك ماكسبت يداك ، لأنك قد أحسنت وكنت لى ولنفسك وفياً .

ووقف الخادم الآخر ثم قال : سيدى ، لقد خفت ضياع مالك فلم أشتر ولم أبع ، وها هوذا ذهبك كله فى هذا الكيس .

فأخذ التاجر الذهب وقال : ما أقل وفاءك . فلأن تقايض فتخسر خير من ألا تمضى قُدماً ، فكما تُبعثر الريح الحبّ وترقب الثمر كذلك يجدر بالتاجر أن يفعل، وإنه لخير لك منذ الآن أن تخدم غيرى .

وحين كان عيسى يتحدّث هذا الحديث ، كان يكشف عن سر التجارة ، وإن لم يكن تاجراً .

هذا إلى أن أمثلته كثيراً ما كانت تزوّد عقلى بأفكار أبعد بُعداً من رحلاتى ، غير أنها كانت أقرب إلىّ من بيتى وبضاعتى .

وما كان الفتى الناصرى إلهاً ، وإنها لحسرة أن يسعى أتباعه ليجعلوا من مثل هذا الحكيم إلهاً .

فوميا
كبيرة الكاهنات فى صيدا

خذن القيثار . خلينى أغن
حركن الأوتار عن عسجد ولجين
سأغنى عن الرجل المقدام
الذى ذبح تنين الوادى
ثم انحنى بزهو فى أسى
إلى هذا الذى ذبح

* * *

خذن القيثار وغنين معى
سوامق البلوط فى العلياء
تغنين عن الإنسان ذى القلب السماوى
واليد التى لها فيض المحيط
الذى لثم شفاه الموت الشاحبة
ثم هو الآن يضطرب على فم الحياة

* * *

خذن القيثار وتعالين نغن

القانص الشجاع على التلال
الذى فَوَّق سهمه المسحور وسدّده إلى فريسته
ثم حمل القرون والأنياب هابطاً إلى الأرض

* * *

خذن القيثار وغنّين معى
الفتى الجرىء الذى قهر مدائن الجبال
وغلب نظائرها فى السهول ، تلك التى تلتفّ كالأفاعى فى الرمال
وهو بعدُ لمّا ينازل الأقزام وإنما صارع آلهة ،
بها سَغب إلى لحومنا وظمأ إلى دمائنا .
وأسوة بالصقر الذهبى الأول
لم ينصدّ لغير النسور
فلقد كانت له أجنحة عاتية ممتدة
فلم ينقضّ على صغار الطير

* * *

خُذن القيثار وغنّين معى
أغنية مرحة عن البحر والشطآن
فلقد ماتت الآلهة
وهى لا تزال منطرحة
فى جزيرة مهجورة من بحر مهجور

وهاهو ذا مَن ذبحها يتربع على عرشه
وما كان المقاتل غير شاب
لم يُنْبت الربيع بعدُ له لحيةً كاملة
وكان صيف حياته ما يزال غضًّا فى الحقول

* * *

خُذن القيثار وغنّين معى
عن العاصفة تجتاح الغاب
وتكسر الغصن اليابس والعسلوج العارى
ولكنها تدفع بالجذر الحىّ إلى أعمق مما كان
ليرقد ناعمًا دافئًا على صدر أمه الأرض

* * *

خذن القيثار وغنّين معى
أغنية حبيبنا التى لا تموت
بل امسكن يا وصيفاتى وخلين أيديكن
وضعن القيثار جانبًا
فأنّى لنا أن نتغنّى به الآن
إن همسات أغنيتنا الخافتة لا ترقى إلى عاصفته
ولا تقوى على النفاذ خلَل جلال صمته

ضعن القيثار جانباً والتففن حلقةً حولى
فإنى مردّدة لكنّ كلماته
ومعدّدة لكنّ جلائل أعماله ،
فإن رجع كلماته لأعمق من كل ما نُحس الآن .



بنيامين الكاتب

يقال إن عيسى كان لرومه واليهودية عدواً

غير أنى أقول : إن عيسى لم يكن عدواً لإنسان ما ولا لجنس من الأجناس .

ولقد سمعته يقول : « إن الطير فى السماء ، والقمم التى تتوج الجبال ، لا تُلقى بالاً للأفاعى فى جحورها المظلمة .

دع الموتى يواروا الموتى ، وكن أنت بين الأحياء وحلّق عالياً . »

وما كنتُ حوارياً من حوارييه ، بل ما كنت غير واحد من هؤلاء الكثيرين الذين ذهبوا فى إثره يتطلّعون إلى محياه .

ولقد ألقى على رومه نظرة كما ألقى علينا ، نحن الذين كنا عبيداً لرومه ، كما يلقى الأب نظرة على أطفاله وهم يلعبون بالدمى ، ينازع بعضهم بعضاً الدمية الكبرى . وكان يضحك فى شموخ .

لقد كان أسمَى من أن يُعادى دولة أو يعادى جيشاً ، كما كان أسمى من أن يقوم بثورة :

لقد كان فرداً وحيداً ، وكان من المُوقظين .

لقد ذرف عنا ما لم نَذْرف من دموع ، وبسم لكل ما أبدينا من تمرّد د

كان فى مُكنته أن يولد مع من لم يولدوا بعد ، وأن يأمرهم بأن يروا ، لا بأعينهم ولكن ببصيرته .

كان عيسى إيذاناً بمملكة جديدة على وجه الأرض ، مملكة لن تبيد .

كان ابناً وكان حفيداً لكل من شيّد مملكة الروح من ملوك . وما حكم دنيانا غير هؤلاء من ملوك الروح .



زاخـوس

إنكم لتصدّقون كل ما تسمعونه يُقال ... ألا فليكن تصديقكم بغير ما يقال ، فإن صَمْت الناس أقرب إلى الصدق من حديثهم .

وإنكم لتتساءلون : أما كان عيسى مستطيعاً أن يخلص من ميتته تلك المخزية ، وأن ينجو بحوارييه من الاضطهاد ؟

وإنى لأجيب : لقد كان فى وسعه حقاً أن ينجو مختاراً ، غير أنه لم ينشد الأمن ، ولا ألقى بالاً لحماية قطيعه من ذئاب الليل .

لقد كان يعرف ما قُدِّر له ، ويعرف ما ينتظر مريديه الأوفياء فى غد .

ولقد سبق فتنبأ بما سيحلّ بكل منهم . وهو لم يسع إلى حتفه . ولكنه تقبَّل الموت كما يتقبل الفلاح الشتاء وهو يَذْرِى الرماد على الحب منتظراً الربيع ثم الحصاد ، وكما يضع البانى الحجر العظيم فى الأساس .

لقد كنّا نفراً من الجليل ومن منحدرات لبنان ، وكان عيسى وليّنا يملك أن يعود بنا إلى بلادنا كى نعيش فى ظل شبابه بين بساتيننا إلى أن يدركنا الكبر ، ويهمس إلينا أن عودوا إلى فناء .

أكان ثمة ما يقف فى طريق أوبته إلى المعابد التى تضمها قُرانا ، حيث غيرنا من الناس يتلون ما للأنبياء ثم يفصحون عما بنفوسهم ؟

أوَلم يكن فى قدرته أن يقول : إنى الآن قاصد قصد الشرق مع الرياح الغربية ، فيصرفنا بقوله هذا والابتسامة على شفتيه ؟

بلى . لقد كان فى قدرته أن يقول : « عودوا إلى عشائركم ، فإن الدنيا لم تتهيأ بعدُ لى . وسأعود بعد ألف عام . لقّنوا أولادكم أن يرقبوا مجيئى . »

لقد كان بوسعه أن يقول هذا إذا شاءه .

ولكنه كان يدرك أن من يبنى المعبد غير المرئى عليه أن يبذل نفسه ليكون حجر الزاوية ، وأن يضعنا حوله حصًى مجموعة إليه عن قرب .

ولقد كان يدرك أن العصارة لشجرته السماوية يجب أن تصعد من جذورها ، فصبّ دمه على تلك الجذور ، ولم يرَ فى هذا تضحية منه بل عدّه غُنْما .

إن الموت هو الذى يفصح عن الحياة . ولقد أفصح موت عيسى عن حياته ، ولو أنه أفلت منكم ومن أعدائه لكانت لكم الغلبة فى الأرض ، فهو لهذه لم يفلت .

إن الذى يرغب فى كل شىء يُعطى كل ما عنده .

أجل . لقد كان فى وسع عيسى أن يهرب من أعدائه ويعيش إلى أن يعمّر ، ولكنه كان يعلم أن الزمن إلى تحوّل ، وكان بودّه أن يغنّى أغنيته .

ألا دلّونى على رجل تصدّى للدنيا فى شِكّتها ثم لم يبؤ بالهزيمة فى

اللحظة التي يوشك فيها أن يقهر الزمان ؟

والآن يتساءلون : تُرى من ذبح عيسى : أهم الرومان أم كهنة بيت المقدس ؟

ما ذبحه الرومان ولا الكهنة ، لقد وقفت الدنيا بأسرها على التل تمجّده .



يوناثان

ذات يوم كنت ومن أحب نَجْدِف فى بحيرة ماؤها عذب ، وكانت تلال لبنان تُحدق بنا .

وكنا نتنقّل فى ظلال أشجار الصّفصاف المتهدّلة ، وكانت ظلالها تُغشّي ما حولنا .

وبينما كنت أدفع القارب مستعيناً بمجدافى أخذت محبوبتى العود وغنّت :

هل من زهرة غير اللوتس عندها خبر الماء والشمس ؟

وهل غير قلب اللوتس عنده خبر السماء والأرض ؟

تطلّع أيها الحبيب إلى الزهرة العسجدية وهى تتهادى بين البحر والسماء :

شأنى وشأنك حين نتهادى يضمّنا حُب ، كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد .

ألا جَدّف أيها الحبيب ،

ولتدعنى أمسّ أوتارى .

لنمض مع الصفصاف ، ولكن ، لا لننأى عن زنابق الماء .

هناك فى الناصرة يعيش شاعر يحكى قلبه اللوتس .

ألَمّ مرة بروح امرأة
فهو يعرف ظمأها الذى خلّفته لها المياه
ويعرف جوعها إلى الشمس ، وإن كانت شَفَتَـُها غَضّة رِيّاً .
يقولون إنه يمشى فى مناكب الجليل .
وأقول : إنه يَجْدف معنا .
ألا ترى وجهه أيها الحبيب ؟
ألا تراه هناك حيث تلتقى أغصان الصفصاف بصورتها فى الماء ؟
وأنه يدور حين ندور ؟
جميل أيها الحبيب أن تعرف الحياة فى شبابها ،
وعذب أن تعرف مرحها الصدّاح .
هلاّ كان المجداف دوماً لك ،
وكان لى عودى بأوتاره ،
حين يتفتّح اللوتس ضاحكاً فى ضوء الشمس ،
ويميل الصفصاف إلى الماء ،
ويرنّ صوت الناصرى على أوتارى ؟
اضرب بمجدافك أيها الحبيب فى الماء .
وخلّنى أمسّ أوتارى .
إن فى الناصرة لشاعراً .

يعرفُنا معًا ، ويحبنا سويًّا .
اضرب بمجدافك أيها الحبيب فى الماء .
وخلنى أمسّ أوتارى .



حنة
من بنات بيت صيدا
عام ٧٣

خلّفتنا عمتنا شابة لتسكن فى كوخ يقرب من كرمة أبيها القديمة .

وعاشت وحدها ، يقصد إليها أهل القرى المجاورة فى مرضهم فتداويهم بأعشاب خضراء ، وجذور وأزهار أيبستها الشمس .

وكانوا يعدّونها عرّافة ، غير أن ثمة نفراً كانوا يسمونها ساحرة ومشعوذة .

وذات يوم قال لى أبى : احملى هذه الأرغفة من خبز القمح ، وهذه القدر من النبيذ ، وتلك السلة من العنب ، إلى أختى .

ووضعنا هذا كله فوق ظهر مُهرة ، ومضيت فى الطريق حتى انتهيت إلى الكرمة وبلغت كوخ عمتى : فسُرّت بمقدمى :

وبينما نحن جلوس معاً والوقت ندىّ ، طلع علينا رجل من الطريق ، حيّا عمتى قائلا : عمى مساء ، ولتحل عليك بركة الليل .

عندها نهضت واقفة أمامه فى خشية وقالت : عم مساء ، يا ولىّ الأرواح الخيّرة ، وياقاهر الأرواح الشريرة جميعاً .

ونظر إليها الرجل بعينين ملؤهما الحنان ، ثم مضى لقصده .

غير أنى ضحكت بينى وبين نفسى ، وخلت أن عمتى بها خبل ، وإنى لأعلم الآن أنه لم تكن بها جِنّة وكنت أنا التى لم تفهم .

ولقد أحسّت ضحكى وإن كان خفياً .

وتكلمت غير غاضبة وقالت : استمعى إلىّ يا بنيّتى مصيخة ، وعِى كلماتى فى ذاكرتك : إن الرجل الذى مرّ بنا الساعة ، مرور طيف الطائر المحلّق بين الشمس والأرض ، سوف يُذل القياصرة ويسود إمبراطوريتهم . ولسوف يصارع ثور كلدانيا المتوّج ، وأسد مصر الذى يحمل رأس إنسان ، ولسوف يُكتب له النصر عليهم ، ولسوف يحكم العالم .

أما هذه الأرض التى يدوسها الآن فسوف تصبح هباء ، وأما مدينة بيت المقدس ، التى تتبوأ مكانها فوق التل شامخة ، فسوف تتصاعد دخاناً تحمله ريح الدمار .

وعندما حدثتنى هذا ، استحال ضحكى سكوناً وهدأت ، ثم قلت : من هو هذا الرجل ، ومن أى بلد أتى ، ولأية قبيلة يُعزى ؟ وكيف يُقدَّر له أن يقهر الملوك العظام ، ويغلبهم على إمبراطورياتهم ؟

فأجابت : إنه واحد ممن ولدوا هنا على هذه الأرض ، ولكننا كنا نتخيله فيما نَصْبُو إليه منذ بدأ الزمان . إنه يعزى إلى كل القبائل ، ولا تملكه قبيلة واحدة .

وسوف تكتب له الغلبة بالكلمة التى تخرج من فيه ، وباللهيب الذى لروحه .

ثم نهضت واقفة فجأة وكأنها قمة من صخر ، وقالت :

ألا ليت ملائك الرب تغفر لى حين أصرح فأقول : ولسوف يُذبح ، ولسوف يَطوى الكفن شبابه ، ولسوف يرقد فى سكون فى جوار قلب الأرض الصامت وتبكيه عذارى مدينة اليهودية .

ثم رفعت يدها إلى السماء وعادت تتحدث قائلة :

ولكنهم لن يذبحوا منه إلاّ جسمه .

ولسوف ترتفع روحه وتمضى قُدمًا تسعى بقربانه من هذه الأرض التى تشهد مولد الشمس ، إلى الأرض التى تُذبح فيها الشمس مع المغيب .

ولسوف يصبح اسمه الأول بين الناس .

* * *

كانت عمتى عرّافة عجوزاً حين قالت هذه الأشياء ، ولم أكن أنا غير فتاة عريرة : حقلا لم يُحرث ، وحجراً لا يجد مكانه فى الجدار .

غير أن هذا كله الذى رأته فى مرآة مخيلتها أصبح يمرّ بى فى يومى هذا .

فلقد قام عيسى من بين الموتى ، وقاد الرجال والنساء وبَشّر بهم أهل الغرب .

أما المدينة التى أسلمته إلى القضاء فقد أُسلمت هى نفسها إلى الفناء . وقاعة القضاء التى حوكم فيها وأُدين ينعق اليوم فيها البومُ نادباً ، ويبكى الليل بقلبه الندىّ على ذلك الرخام المتهدم .

وإنى الآن لعجوز تنوء بحمل السنين ، ولم يعد لى أهل، وبادت قبيلتى .

وما رأيته غير مرة ثانية ، بعد يومه ذاك .

وأخرى سمعت صوته . وكنت على قمة التل وكان هو يتحدث إلى أصدقائه وأتباعه .

وإنى الآن لعجوز وحيدة ، ولكنه لا يزال يزورنى فى أحلامى .

فيطيف بى فى صورة ملاك أبيض له قوادم من ريش، فيذهب عنى وحشة الظلام بنظرته ويرفعنى إلى أحلام أبعد بُعداً .

ولا زلت حقلا غير محروث ، وفاكهة أدركت نضجها ، تأبى أن تقع . وكل ما أملك هو دفء الشمس، وذكرى تبقّت لى من هذا الرجل .

وإنى لأدرك أنه لن يكون بين قومى من ينهض ثانية ، ليكون ملكاً أو نبياً أو كاهناً ، تماماً كما تنبأت عمتى .

ولسوف نمضى مع مسيل الأنهار ، ونكون نسياً منسياً ، ولكن الذين لقوه فى منتصف المجرى ، سوف يُذكرون لأنهم لقوه فى منتصف المجرى.



مـــنشى
محام فى بيت المقدس

نعم. لقد درجتُ على أن أسمعه يتكلم. وكانت الكلمة دائمًا على شفتيه.
وكنت أكبره رجلا أكثر من إكبارى إياه قائداً.
وكان يعظنى بما لا يطيقه هواى وقد لا يقوى له عقلى.
وما أحببت أن يعظنى إنسان.
وكنت مأخوذاً بصوته وإشاراته لا بموضوع حديثه. لقد سحرنى وما أقنعنى، إذ كان غموضه فوق ما أطيق، لا ينتهى حديثه إلى عقلى لشدة بُعده وإبهامه.
ولقد عرفت رجالا آخرين مثله، فما كان لهم أبداً رسوخ ولا استقرار، وبما يملكون من فصاحة لا بما يملكون من رأى كانوا يأسرون سمعك وخواطر فكرك، ولكنهم لم يكونوا يبلغون الصميم من قلبك أبداً.
ومن أسف أن أعداءه عارضوه وأصرّوا على أن يضعوا حداً للمشكلة وما كان أولاهم ألا يفعلوا. فإنى لأرى أن خصومتهم ستزيد من قدره، وتحيل من لينه قوة.
أوَ ليس غريبًا أنك تُكسب الرجل شجاعة إذا عارضته؟
وأنك حين تُعوّق رجليه عن المسير تهيّئ له جناحين؟
ولست أدرى من هم أعداؤه، غير أنى على يقين أنهم حين خافوا رجلا غير ذى أذى قد أعاروه قوة وجعلوه خطيراً.

يفتاح
من القيصرية

إن هذا الرجل الذى يتزحم عليكم يومكم ويثقل عليكم ليلكم ، ممقوت لدىّ ، وإنكم لتشقّون على سمعى بأقواله ، وعلى فكرى بأفعاله .

وإنى لضيّق بكلماته وبكل ما يفعل . يغيظنى اسمه ذاته ، واسم بلده وما أحب أن أسمع عنه المزيد .

لم أنتم جاعلون منه رجلا نبيًّا ولم يكن غير ظل فحسب ؟

ولم تخالون من القطرات تتجمّع فى موقع الحافر بحيرة ؟

أنا لا أستخف بالأصداء فى كهوف الوديان ، ولا بالظلال الممتدة مع غروب الشمس ، ولكنى لن أصغى إلى الغوايات التى تضطرب فى رأسك ، ولن أحفل بالأطياف فى عينيك .

أية كلمة نطق بها عيسى لم يقلها هاليل ؟

وأية كلمة كشف عنها لم تكن لغمالئيل ؟

وأين لُكنته من صوت فيلو ؟

وأية صنوج دقّها لم تُدق قبل أن يولد بزمان طويل ؟

إنى لأصيخ إلى الأصداء تنبعث من الكهوف فى الوديان الساكنة ، وإنى لأتطلع إلى الظلال الممتدة مع غروب الشمس ، ولكنى لا أسيغ

أن يستملي قلب هذا الرجل من قلب رجل آخر ، ولا أن يدعي لنفسه النبوة من هو ظل للعارفين .

ماذا بقي له من قول بعد ما تكلّم يوشع ؟

ومن يملك أن يغنّي بعد داود ؟

وهل لحكمة أن تُبعث من جديد بعد أن طوى الموت سليمان وآباءه الأولين ؟

ثم ماذا عن أنبيائنا الذين كانت ألسنتهم سيوفاً مسلولة ، وشفاههم لهباً متقداً ؟

أتراهم خلّفوا وراءهم عوداً من قش لهذا الجليلي جامع لُقاطة الحصاد ؟

ثم أتراهم تركوا ثمرة سقطت لهذا السائل من الأقطار الشمالية ؟

ما بقي له إلاّ أن يأكل الرغيف الذي خبزه لنا أسلافنا منذ حين قريب ، وأن يشرب النبيذ الذي هصرت أقدامهم المقدسة أعنابه الأزلية منذ أمد غير بعيد .

إنها ليد صانع الفخّار هي التي أمجّد ، لا يد شاريه .

وإني لأُكبر الذين يجلسون إلى النول فوق إكباري للجِلْفِ الخشن الذي يلبس الثياب .

ومن كان عيسى الناصري هذا ، وماذا أسلف ؟

كان رجلا لم يبلغ أن يعيش بما يمليه عليه فكره . لذا طواه النسيان ، وكانت تلك نهايته .

وإني لأسألك ألا تثقل على أذني بكلماته ولا أفعاله ، فإن قلبي مفعم بحديث الأنبياء السالفين . وحسبي هذا .



يوحنا
الحواريّ المحبوب
حين امتد به العمر

تودّون لو حدّثتكم عن عيسى ، ولكن أنّى لى أن أجعل الأغنية الحزينة للدنيا تستهويها قصبة جوفاء .

لقد كان عيسى يعرف ربّه فى كل آية من آيات اليوم ، كان يراه فى الغمام وفى ظُلَل الغمام التى تمرّ فوق الأرض ، كما كان يرى وجهه تعكسه صفحة الغدران الساكنة ، والأثر العافى لأقدامه على الرمال . وكم أغمض عينيه ليرنو إلى ذات الله .

كان الليل يتحدّث إليه بصوت الرّب .

وفى خلوته كان يسمع ملائك مولاه تهتف به .

وحين يسترخى لينام كان يسمع همس السموات فى أحلامه .

ولقد كان جد سعيد بنا ، وكان يدعونا إخوة .

فانظر إلى من كان الكلمة الأولى يدعونا إخوة ، وما كنا غير مقاطع من كلمات لم ينبس بها إلا أمس .

وتسألنى لم أدعوه الكلمة الأولى ؟

استمع إلىّ أجبك .

فى البدء تجلّى الله فى الفضاء ، ومن هذا التجلّى الذى لا تضمه حدود

خلقت الأرض ، ومنها خلقت الفصول .

ثم تجلّى الله ثانية ، ففاضت عنه الحياة . وبرّح الشوق بالحياة ، فجعلت تطلب المرتفعات والأغوار تودّ لو مُدّ لها فى الحياة .

عندئذ نطق الرّب ، وكانت كلماتُه الإنسان ، وكان الإنسان روحاً من روح الله .

وعندما نطق الرب ما نطق ، كان المسيح كلمته الأولى ، وحقّت كلمة الرب . وعند ما جاء عيسى الناصرى إلى الدنيا ألقيت هذه الكلمة الأولى إلينا واستحال الصوت لحماً ودماً .

وكان عيسى المطهَّر كلمة الله الأولى التى ألقاها إلى الإنسان ، مثله كمثل شجرة من تفاح فى بستان نمت وازدهرت قبل غيرها من الأشجار بيوم ، وكان ذلك اليوم فى جنة الله دهراً. ونحن جميعاً — بنين وبنات — من العلىّ المتعال ، ولكن هذا المطهَّر كان أول ما كان عنه ، جاء فى صورة عيسى الناصرى يسعى بيننا ونراه .

أقول لكم هذا كله لتعوه لا بعقولكم فحسب بل بأرواحكم .

فإن العقول تزن وتقيس ، وليس غير الأرواح تبلغ كنه الحياة وتنطوى على سرها ، كما أن بذرة الحياة لا تموت . وقد تهب الرياح ثم تسكن ، وقد يهيج البحر ثم يفتر ، ولكن قلب الحياة مستقر مكين والنجم الذى يسطع فيه ثابت لا يغور أبداً .

حديث
متوس اليومي
إلى رجل من اليونان

كان اليهود ، كجيرانهم من الفينيقيين والعرب لا يَدَعُون أربابهم يستقرون برهة ناعمين .

فكانوا كثيري التفكير في معبودهم ، مشغولين بصلاة بعضهم البعض وعبادتهم وما يقدمون من قرابين .

وعلى حين نبني ، نحن الرومانيين ، لآلهتنا معابد من رخام ، إذا هؤلاء الناس يناقشون طبيعة أربابهم . ونحن ، حين نطرب ، نغني ونرقص حول مذابح عطارد وجونو والمريخ والزهرة ، أما هم فحين يطربون يلبسون رثّ الثياب وينثرون فوق رؤوسهم الرماد ، بل تراهم يندبون اليوم الذي وُهبوا فيه الحياة .

وعيسى ، هذا الإنسان الذي عرّف الله بأنه مصدر السرور ، قد عذبوه ثم أسلموه إلى الموت .



إن هؤلاء الناس لايرتاحون لرب طروب ، ولا يعرفون غير أرباب تنبثق من آلامهم .

وكذلك أصدقاء عيسى وحواريوه ، هؤلاء الذين عرفوا طربه وسمعوا ضحكه قد اتخذوا لحزنه صورة ، وعبدوا تلك الصورة .

وهم بهذه العبادة لا يرتقون إلى إلههم ، بل يهبطون بإلههم إلى مرتبتهم هم .

على أنى أعتقد أن هذا الفيلسوف عيسى — وما الفرق بينه وبين سقراط ببعيد — سوف يكون له السلطان على قومه ، وربما على قوم آخرين .

إذ نحن كلنا أبناء أحزان ونسل صغار الشكوك .

وإذا ما قال لنا إنسان : ليكن السرور سبيلنا إلى الله ، لا نملك إلا أن نستمع إليه .

وعجيب بعد هذا أن تتشكل آلام هذا الرجل فتصبح طقوساً .

إن هؤلاء الناس يريدون أن يقعوا على أدونيس آخر ، هذا الرب الذى ذُبح فى الغاب ، وأن يحتفلوا بذبحه .

ومن أسف ، أنهم لايلتفتون إلى ضحك هذا الإله .

ولكن ، لنعترف كما يعترف الرومانى للإغريقى : أترانا نحن أنفسنا نستمع إلى ضحكات سقراط فى شوارع أثينا ؟

أم ترانا ننسى كأس السم التى سُقيها سقراط ، حتى ونحن فى ملهى ديونيسوس ؟

أما انفك آباؤنا يقفون على منعرجات الشوارع ، ليتحدثوا عن متاعبهم وليقضوا لحظة سعيدة يتذاكرون فيها المصير المؤلم لرجالنا العظام جميعاً ؟

بيلاطس البنطى

كثيراً ما تحدثت عنه زوجتى قبل أن يمثلُوا به بين يدى ، ولكنى لم أكن أُلقى بالا .

وكانت زوجتى من الحالمات ، أسلمت نفسها للعبادات والشعائر الشرقية ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الرومانيات ممن هنّ فى قَدْرها .

ولقد استبان لى أن هذه العبادات شرّ على الإمبراطورية ، وأنها حين تجد سبيلها إلى قلوب نسائنا تبذر فيها بذور الدمار .

ولقد حانت نهاية مصر عندما حمل إليها الهكسوس العرب عقيدة الإله الواحد من صحرائهم .

وغُلبت اليونان وخرّت صريعة عندما حلّت بها عشطروط وفتياتها السبع من شواطئ سوريه .

أما عن عيسى ، فما رأيت الرجل أبداً قبل أن يسلموه إلىّ آثماً ، وعَدُوًّا لقومه ، وعدوًّا لرومه .

ولقد جاءوا به إلى ساحة القضاء وذراعاه مشدودتان إلى جسمه بالحبال .

وكنت جالساً على المنصّة ، فمشى إلىّ بخطوات واسعة ثابتة ووقف منتصباً وقد رفع رأسه عالياً .

ولم أستطع أن أدرك عمق ما حلّ بي في تلك اللحظة ، وفجأة وجدتني راغباً ومسوقاً غير مختار ، أن أنهض وأنزل عن منصتّي لأرتمي بين يديه.

لقد أحسست كأن قيصر قد دخل القاعة ، لقد كان رجلا تفوق عظمته عظمة رومه نفسها .

غير أن هذا لم يدم غير برهة ، ثم رأيته رجلا ليس غير ، متهماً بخيانة قومه ، ورأيتني حاكمه وقاضيه .

وسألته ، غير أنه لم يشأ أن يجيب . وما زاد على أن نظر إليّ نظرة ملؤها الأسى ، وكأنما هو نفسه حاكمي وقاضيّ .

ثم تعالت صيحات الناس من الخارج . ولكنه ظل صامتاً ، وطفق يرمقني والأسى في عينيه .

وخرجت أهبط درجات القصر . وحين رآني الناس أمسكوا عن الصياح ، فقلت : ماذا أنتم فاعلون بهذا الرجل ؟

فهتفوا وكأنهم يصدرون عن حلق واحد : نريد له أن يُصلب . إنه لعدوّ لنا ، عدوّ لرومه .

وصاح بعضهم : ألم يقل إنه يريد أن يخرّب الهيكل ؟

ألم يُعلن أن المُلك له ؟

لن يكون لنا ملك إلاّ قيصر .

وهنا تركتهم ورجعت إلى ساحة القضاء : ورأيته لا يزال واقفاً هناك وحده ورأسه لا يزال شامخاً .

إذ ذاك ذكرت ما قرأت من قول لفيلسوف يونانى : أقوى الرجال من كان وحيداً .

وفى تلك اللحظة كان الناصرى أعظم من قومه شأناً .

وما شعرت بالرحمة له ، فلقد كان أكبر من رحمتى .

ثم سألته : أأنت ملك اليهود ؟

فما نطق بكلمة .

ثم سألته ثانية : ألم تقل : « إنك ملك على اليهود ؟ »

فتطلّع إلىّ .

ثم أجاب فى صوت هادئ : « أنت الذى ناديت بى ملكاً ، ولقد أكون لهذه الغاية ولدت ، ولهذا السبب جئت لأكون على الحق شاهداً . »

أرأيت إلى رجل يتحدث عن الحق فى لحظة كهذه !

وصحت ضجراً أسائل نفسى وأسائله : ترى ما هو الحق ؟

وماذا يغنى الحق عن البرىء وقد تناولته يد الجلاد ؟

عندها قال عيسى فى عزم : « لا حُكم لأحد فى الدنيا إلا بالروح والحق . »

وسألته قائلا : أتراك نفحة من الروح ؟

فأجاب : « وكذلك أنت ، غير أنك لا تدرك . »

ألا ما جدوى الروح ، وأى غناء فى الحق عندما نسوق بريئاً إلى الموت ؟ أفعلُ هذا من أجـــل الدولة ، وهم يفعلونه مدفوعين بالغيرة

على طقوسهم القديمة ؟

وما فى قدرة رجل من الرجال ، ولا جيل من الناس ، أو مملكة فى الأرض ، على الوقوف دون الحق وهو فى سبيله إلى تحقيق ذاته .

وقلت له ثانية : هل أنت لليهود ملك ؟

فأجاب : «أنت الذى تقول هذا . لقد قهرت الدنيا قبل هذه الساعة » .

وكان هذا وحده من بين كل ما قال قولا نابيًا . إذ أن رومه وحدها هى التى قهرت العالم .

غير أن أصوات الناس تعالت ثانية ، وعظمت الجلبة عن ذى قبل . فنزلت من مقعدى وقلت له : اتبعنى .

وظهرت ثانية على درجات القصر ، ووقف هو هناك إلى جانبى .

وعندما رآه الناس كان لهم صخب كقصف الرعد ، وفى صخبهم لم أسمع شيئًا غير : اصلبوه ، اصلبوه .

عندها أسلمته إلى الكهنة الذين أسلموه إلىّ وقلت لهم : اصنعوا بهذا الرجل البارّ ما شئتم . وإذا شئتم أخذتم معكم جندًا من رومه لحراسته .

ثم أخذوه ، وقضيت بأن يكتب على الصليب فوق رأسه : « عيسى الناصرى ملك اليهود » . وكان أجدى لى أن أقول « عيسى الناصرى ، ملك » .

ولقد جرّدوا الرجل من ثيابه وأوسعوه ضربًا ثم صلبوه .

وقد كان بوسعى أن أخلصه ، ولكن نجاته كانت خليقة أن تفضى إلى ثورة .

وإنه لمن الحكمة دائمًا لمن يحكم مقاطعة رومانية أن يكون متسامحًا مع الشكوك الدينية التى تساور شعبه المحكوم .

وإنى لمؤمن حتّى ساعتى هذه أن هذا الرجل كان أكبر من داعية للفتنة . وما قضيت به لم يكن ما أردت ، بل كان من أجل رومه .

ولم يمض وقت طويل حتّى تركنا سوريه . ومنذ ذلك الوقت أصبحت زوجتى حليفة همّ ، وإنى لأراها أحيانًا فى هذه الحديقة والفجيعة فى وجهها .

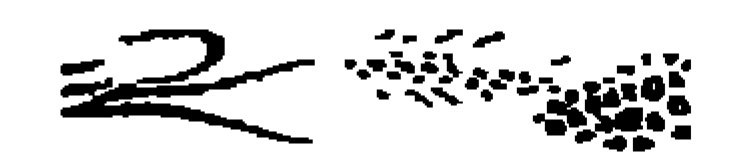
ولقد أُخبرت أنها تتحدّث كثيراً عن عيسى إلى غيرها من نساء رومه .

فياعجبًا للرجل الذى قضيت بموته يؤوب من عالم الأشباح ليدخل علىّ بيتى .

وإنى لأسأل نفسى مرة ومرة : ما هو الحق ، وما هو غير الحق ؟ أترى الناصرى قد أخذ يغزونى مع ساعات الليل الساكنة ؟

لا . إن هذا لن يكون .

وحتم على رومه أن تقضى على ما يُلمّ بزوجاتنا من أضغاث أحلام .



برتلماوس
في إفسس

إن أعداء عيسى ليقولون إنه جهر بدعوته للأرقاء والمنبوذين ، وسعى إلى أن يخرجهم على مواليهم .

وقالوا أيضاً : إذ كان عيسى وضيع الأصل فقد استعان بمن هم على شاكلته وهو على ذلك حاول أن يستر أصله .

ولكن تعالوا ننظر بعين الرويّة إلى أتباع عيسى وإليه زعيماً .

فهو بادئ ذى بدء اختار نفراً قليلا من بلاد الشمال رفقاء له ، وكانوا أحراراً ، لهم بسطة فى الجسم وقوة فى الروح ، ولقد ملكوا من الشجاعة خلال هذه الأربعين السنة الخالية ما واجهوا به الموت فى إرادة واستهانة بالأخطار .

أيدور بخلدك أن هؤلاء الرجال كانوا أرقاء أو كانوا منبوذين ؟

وهل يدور بخلدك أن هؤلاء الرجال والنساء ذوى المجد الرفيع فى أنطاكيه وفى بيزنطه وفى أثينا وفى رومه كان من اليسير أن يؤخذوا بصوت زعيم للأرقاء ؟

لا . لم يكن الناصرى مع الأجراء حرباً على السادة ، كما لم يكن

مع السادة حرباً على الأجراء . ما ناصر رجلا على رجل .

لقد كان رجلا فوق الرجال . وتلك الدفقات التى تدفقت فى عروقه نبضت مجتمعة بالألم والقوة .

وإذا كان النبل فى أن تكون حامياً ومدافعاً ، فلقد كان أنبل الناس جميعاً .

وإذا كانت الحرية حليفة الفكر والقول والعمل ، فلقد كان على رأس الأحرار جميعاً .

وإذا كان علو المتحتد صنو الشموخ الذى لا يذل إلا للحب ، وأليفاً للعزلة التى هى أبداً رقة ورحمة ، فلقد كان من بين الناس جميعاً أعلاهم محتداً .

لا تنسوا أن القوى العجل يحرز قصب السبق ويكلل بالغار . ولقد توج عيسى هؤلاء الذين أحبوه ، كما توجه أعداؤه وإن كانوا لا يعلمون .

وهو إلى الآن لا يزال تتوجه كل يوم كاهنات أرتميس فى المعارج المكنونة من معابدهن .

مَـتَى

ذات مساء مرّ عيسى بسجن فى برج داود . وكنا نسير خلفه فرأيناه تلبّث فجأة ملصقاً خدّه بجدار السجن وأخذ يقول :

« إخوتى منذ الأزل ، إن قلبى ليخفق مع قلوبكم خلف الأسوار . لَشَدّ ما أتمنى أن تكونوا أحراراً فى ظل حريتى وأن تسعوا معى ومع رفاقى .

أنتم سجناء ولكن لستم وحدكم . فما أكثر السجناء الذين يسعون فى فضاء الأرض لم ينل أجنحتهم مقصّ ، ولكنهم أشبه بالطاووس يصفّقون بريشهم ولا يستطيعون أن يحلّقوا .

إخوتى فى يومى الثانى . سوف أزوركم وشيكاً فى سجونكم وأتطامن بكتفى لتحمل أثقالكم ، فليس ثمة فرق بين البرىء والمذنب ، هما كعظمتى الزّند أبداً لا تنفصلان .

إخوة هذا اليوم الذى هو يومى ، لقد سبحتم مواجهين ما يهدف الناس إليه ، فأمسكوا بكم .

وإنهم ليقولون: إنى أنا الآخر أسبح مواجهاً ما يريدون . ولعلى ألحق بكم قريباً ، خارجاً على القانون مع خارجين على القانون .

إخوة يوم لمّا يولد بعد . سوف تنهار هذه الجدران ، ومن هذه

الحجارة سوف تقوم معالم أخرى ، على يد ذلك الذى مـطرقته النور وإزميله الريح ، وسوف تقفون أحراراً تنعمون بحرية يومى الجديد . »

* * *

بهذا تكلم عيسى ثم مضى قُدماً ويداه فوق جدران السجن إلى أن جاوز برج داود .



أندراوس

إن مرارة الموت لأهون من مرارة العيش دونه .

خرِسَت الأيام وسكنت حركتها حين أسكته القضاء ، ولم يبق غير الصدى تحمله ذاكرتى ، يردّد كلماته ولا يردّد صوته .

ولقد سمعته مرة يقول : « أرخوا لشوقكم العنان يَقُدْكم إلى الحقول .

ولتجلسوا فى ظلال الزنابق فستسمعونها تشدو فى ضوء الشمس ، لا تحوك لنفسها من الأقمشة حللا ، ولا تقيم من الخشب أو الحجارة مأوى ، وهى على ذلك طَرُوب تشدو .

إن الذى يعمل آناء الليل يفى لها بما تحتاج ، وإن ندى نعمته لعلى ورقات أزهارها .

أوَلستم أنتم الآخرون فى رعاية من لا يَنى أبداً ولا يستريح . »

كما سمعته مرة يقول :

« لقد أحصى الله الطير فى السماء ، وعدّها كما عدّ شعرات رؤوسكم . فما من طير يسقط عند أقدام الرامى ، وما من شعرة فى رؤوسكم تستحيل شهباء أو تسقط فى مدارج العمر ، إلاّ بإرادته . »

وقال مرة أخرى :

« لقد استمعت إليكم فى خلجات قلوبكم تقولون : سيكون ربنا أبرّ بنا ، نحن أبناء إبراهيم ، منه بأولئك الذين لم يعرفوه منذ البدء .

ولكني أقول لكم : إن ربّ الكرمة الذى يدعو أجيراً مع الصباح للحصد، ثم يدعو غيره من مغيب الشمس ، ويجزى الأخير أجر الأول ، هو فى الحق من العادلين . ألم يعط من كيسه هو وبإرادته ؟

وكذلك سيفتح الرّب باب داره للطارقين من بنى الأمم ، كما يفتحه لكم حين تطرقون ، لأن أذنه تسمع إلى اللحن الجديد مشوقة الشوق الذى تُوليه أغنية قديمة طال تردادها ، بل يخص قلبه اللحن الجديد بالترحيب إذ هو أصغر أوتار قلبه . »

وسمعته مرة ثانية يقول : « اذكروا هذا : إن السارق رجل قد أعْوَزَ، وإن الكاذب رجل قد فُزِّع ، وكما يقع اللص فى شرك حارسكم بالليل ، كذلك يقع فى شرك ضلاله هو . بودّى لو رثيتم له فى الحالين .

قد يسعى المخطئون إلى دوركم . فلتحرصوا على أن تفتحوا لهم الأبواب وأن تأذنوا لهم بالجلوس إلى موائدكم . فإن لم تلقوهم فلن تكونوا قط أبرياء مما قد اقترفوا . »

وتبعته يوماً إلى سوق بيت المقدس، كما تبعه آخرون، فحدّثنا أحدوثة الابن الضال ، وأحدوثة ذلك التاجر الذى باع كل ما يملك علّه يشترى لؤلؤة .

وفيما هو يتحدّث ساق الفريسيون وسط الجمع امرأة ، ادّعوا أنها ساقطة ، وقصدوا إلى عيسى قائلين له : لقد حنثت بعهد زوجها ، وقد أمسكوا بها آثمة .

فتطلّع إليها عيسى ووضع يده على جبينها ، ثم حملق فى عينيها .

وبعد حين انقلب إلى من جاءوا بها إليه ، ينظر إليهم طويلا وانحنى إلى الأرض وأخذ يكتب عليها بأصابعه .

كتب أسماءهم رجلا رجلا ، وإلى جانب أسمائهم كتب الخطيئة التى اقترفها كل منهم .

وحين أخذ يكتب تسلّلوا خجلين فى الطرقات . وقبل أن يفرغ من كتابته لم يبق بين يديه غيرنا وغير تلك المرأة .

ثم تطلع إلى عينيها ثانية وقال : لقد فاض بك الحب على حين أن من ساقوك إلى هنا لم يذوقوا من الحب إلا يسيراً . إنهم جاءوا بك لتكونى شركًا لصيدى . والآن فلتمضى فى سلام . ما من أحد منهم ملك أن يبقى هنا فيدينك . وإذا ما بدا لك أن تكونى رشيدة كما أنت محبة فاسعى إلىّ ، إذ ليس لابن آدم أن يدينك .

وتملكتنى عندها حيْرةٌ ، لا أدرى أقال هذا لها لأنه لم يكن هو نفسه مُبَرَّأً من الخطيئة ؟

ولكنى منذ ذلك اليوم تأملت طويلا ، ولقد أدركت الآن أن القلب الطاهر وحده هو الذى يصبر للظمأ الذى يقود غيره إلى راكد الماء .

وإن ذا القدم المطمئنة هو وحده الذى يمدّ يداً لمن يتعثّر .

وثانية وثالثة أقول : إن مرارة الموت لأخفّ من مرارة العيش دونه .

رجل موسر

كان يَذْكُر الأغنياء بشرٍّ ، وذات يوم سألته قائلا : سيدى : ماذا أنا صانع لتبلغ النفس طمأنينتها ؟

فأمرنى أن أنزل عما أملك للفقراء وأن أكون له رفيقًا .

وما كان يملك شيئاً فيعرف ما فى التملّك من أمن وحرية ، وما يصحبه من عزة ووقار .

وكان لى فى بيتى من الأرقّاء والخدم أربعون ومائة ، يعمل بعضهم فى بساتينى وكرومى ، ويُبحر بعضهم بسفنى إلى الجزر البعيدة .

ترى ماذا كان يحل بأرقائى وخدمى وزوجاتهم وأولادهم لو كنت ألقيت بالاً لما قال ونزلت عن أملاكى للفقراء ؟

كانوا هم الآخرون يصبحون من السائلين على أبواب المدينة أو فى أروقة المعابد .

لا . إن ذلك الرجل الطيب لم يكن يدرك كنه التملك ، فلقد عاش هو وأتباعه على عطايا الآخرين ، فظن الناس كلهم قادرين على أن يعيشوا عيشته .

وإليك ما هو متناقض مبهم : أحتّمٌ على الموسرين أن يخلعوا على المحتاجين ثرواتهم ؟ أينبغى للمحتاجين أن يشربوا كأس الغنىّ ويأكلوا

رغيفه من قبل أن يدعوه إلى طعامهم ؟

وهل لزام على صاحب البرج أن يكون مضيفاً لنزلائه من قبل أن يقيم نفسه سيداً على أرضه ؟

وإن النملة التي تخزن الطعام لشتائها لأحكم من الجندب الذي يغنى يوماً ويجوع يوماً .

وفى السبت الماضي قال تابع من أتباعه فى السوق : على عتبة السماء حيث يحق لعيسى أن يخلّف نعليه لن نجد إنساناً ما قميناً بأن يضع جبهته .

غير أنى أتساءل : على عتبة بيت مَن كان ذلك المتسكع الأمين قميناً بأن يخلّف نعليه ؟

إنه هو نفسه لم يملك قط بيتاً ولا عتبة ، وكثيراً ما سعى غير منتعل !



يوحنا
في جزيرة بطمس

سأحدثكم عنه للمرة الثانية .

لقد وهبني الله لساناً وشفتين متحرقتين غير أنه لم يمنحني البيان ، وغير جدير أنا بالكلمة الكاملة ، ولكني سأدع ما فى قلبي يحرّك شفتى .

لقد أحبني عيسى ، وما عرفت لذلك سبباً .

ولقد أحببته لأنه سما بروحي إلى ذرى لا يبلغها قدرى ، وهبط بها إلى أعماق لا يدركها علمي .

والحب سرّ مقدس .

وهو للذين يحبون يظل أبداً لا يحتويه لفظ ، وللذين لا يحبون قد لا يعدو دعابة قاسية مريرة .

ولقد دعاني عيسى إليه ودعا معى أخى حينما كنا نعمل فى الحقل . وكنت عندها صغيراً لم يطرق أذنى غير همس الفجر ، وكان صوته ورجع صوته نهاية لحياة الكدّ ، وبدءاً لحياة الوجدان .

ولم يبق لى عندئذ غير أن أسعى فى ضوء الشمس وأقيم عابداً جمال الساعة .

ترى ، أطاف بك جلال يُشفقُ من شدة رقّته أن يكون جليلا ،



وجمال فاض بهاء فما بدا جميلا ؟

لقد دعانى فتبعته .

وفى تلك الأمسية رجعت إلى بيت أبى لأحضر معطفاً لى آخر وقلت لأمى : إن عيسى الناصرى يريدنى على أن أصْحَبَه . فقالت : خُذ سبيله يا بنىّ لتكون كأخيك حقًّا .

وكنت له صاحباً .

ويجذبنى إليه شذاه ، ويُهيمن علىّ ، ولكن لخلاصى .

والحب مضيف كريم لضيوفه ، على أن بيته لمن لم يدع إليه سراب وزيف .

* * *

والآن تريدوننى أن أشرح لكم معجزات عيسى .

نحن جميعاً الآية المعجزة للّحظة التى نعيشها . أما سيّدنا وهادينا فهو من هذه اللحظة مركزها .

وما كان راغباً فى أن تُعرف له آياته .

ولقد سمعته يقول للمُقعد : انهض وعد إلى بيتك ولا تقل للكاهن إنى قد أبرأتك .

على أن عيسى لم يكن يُعنى بالمقعد، بل كان همّه فى القوى والصحيح :

كان عقله يطلب عقول الآخرين ويتملكها ، كما كانت روحه الكاملة تسكن أرواحاً أخرى وترعاها .

وهو حين يفعل هذا كانت روحه تشكّل هذه العقول وتلك الأرواح .
وكان هذا يبدو معجزاً ، ولكنه على سيدنا وهادينا كان يسيراً يسر أنفاس النسيم التى ننشقها كل يوم .

. .

والآن خلّوا بينى وبين الحديث عن أشياء أخرى .
ذات يوم بينما كنت وإياه وحيدين نمشى فى الحقل ، وكنا نشعر بالجوع ، انتهينا إلى شجرة من شجر التفاح برية ولم يكن عليها غير تفاحتين تدلّتا من غصن .
فأمسك جزع الشجرة بيده وهزّه ، فسقطت التفاحتان على الأرض .
فالتقطهما معاً وأعطانى إحداهما وأمسك بالأخرى فى يده . وإذ كنت جائعاً أكلت التفاحة ، أكلتها عجلا .
ثم نظرت إليه فرأيته لا يزال ممسكاً بالتفاحة الأخرى فى يده . .
هنالك أعطاها إلىّ وهو يقول : لتأكل هذه أيضاً .
فأخذت التفاحة ، ومع هذا الجوع الذى لا يعرف الحياء أكلتها .
وحينما عدنا نمشى تطلعت إلى وجهه .
وأنّى لى أن أخبرك بما رأيت !
كان ليلا تشتعل الشموع فى فضائه .
وحلماً لا تبلغ الروح مداه .
وكانت ظهيرة أخلد فيها الرعاة إلى الدّعة سعداء بقطعانهم ترعى .

وكان أصيلا ، وكان سكوناً ، وكان أوبة الغريب ، ثم كان نوماً ، وكان حلماً .

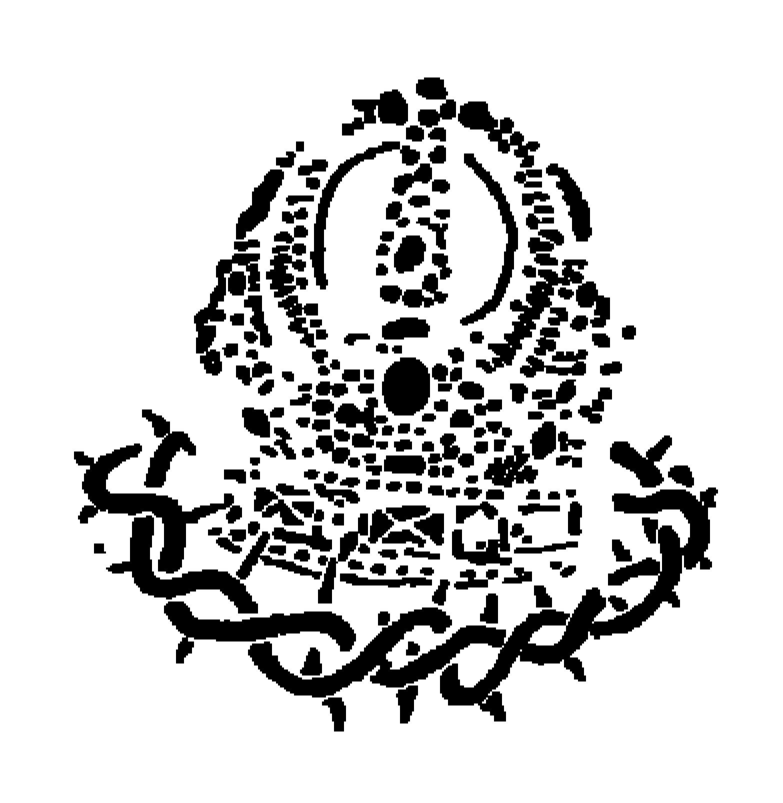
كل هذا تَمثَّلتُ فى وجهه .

لقد أعطانى التفاحتين ، وكنت أعرف أن ما به من جوع مثل الذى بى .

غير أنى أعلم الآن ، أنه حين أعطانى إياهما كان قانعاً ، فقد أكل هو من فاكهة أخرى من شجرة أخرى .

وبودّى لو زدتك حديثاً عنه ولكن أنّى لى ، فعندما يَجل الحب يقصُر القول .

وعندما تعيا الذاكرة بما تحمل تخلد إلى الصمت العميق .



بطرس

وفى كفر نحوم تحدث سيدى وهادىّ مرة فقال :

« جارك نفس لك أخرى تسكن خلف جدار . وحين تتعارف النفوس فسوف تنهار هذه الجدران الفاصلة جميعاً .

وما تدرى لعل جارك نفسك الخيِّرة تَحُلّ بدناً آخر .

فليكن حبّك له من حبّك لنفسك .

إنه هو الآخر صورة من العلىّ القدير الذى لا تدركه .

جارك حقل يخطر فيه ربيع آمالك فى حلله الخضراء ، ويهجع فيه شتاء عَوَزك حالماً بالمرتفعات يكسوها الجليد .

جارك مرآة فيها ترى محياك وقد كَسَتْه جمالاً فرْحة لم تعرفها أنت نفسك ، وأسى لم تشارك فيه .

إنى لأريد لك أن تحب جارك كما أحببتك » .

عندها سألته قائلا : وكيف لى أن أحب جاراً لا يحبنى ، يطمع فى مالى ، ويود لو سلبنى ما أملك ؟

فأجاب : « عندما تحرث ويبذر أجيرك البذر من خلفك ، أتراك

متلبثاً لتنظر ما وراءك ، أو تاركاً محراثك لتهيج عصفوراً ينال النذر اليسير من بذورك ؟

إن تفعل فأنت غير جدير بكنوز الحصاد . »

وعندما قال عيسى هذا تولاني خجل وغشيني صمت، ولكني لم أفزع لأنه ابتسم لي .



حذاء أورشليم

ما أحببته ولكني لم أُبغضه قط .

ولقد أصغيت إليه لا لأعي كلماته ، ولكن لأستمع إلى جرس صوته .
فقد كان صوته يستخفّني .

وكان كل الذى قاله يَعزُّ على فهمي ، ولكن موسيقاه كانت جلية في أذني .

وفي الحق لولا ما قاله لي الآخرون عن تعاليمه ما قدّر لي أن أعرف أكان مشايعاً لليهود أم حرباً عليهم .



سُوسَنَّة الناصريَّة
جارة لمريم

عرفت مريم أم عيسى من قبل أن تصبح زوجة ليوسف النجار ، وقبل أن أتزوج أنا الأخرى .

وفى تلك الأيام كانت مريم ترى رؤى وتسمع أصواتاً وتتحدث عن رسل للسماء يلمّون بها فى أحلامها .

وكان أهل الناصرة معنيين بها ، يراقبونها فى ذهابها ومجيئها ويتطلعون إليها بعيون رفيقة ، إذ كان فى جبينها شمم وفى خطوها الفسيح مهابة .

وكان نفرٌ يقولون: إنها مأخوذة، إذ لم تكن تعنى إلا بشئونها الخاصة .

وكنت إخالها عجوزاً على حين كانت شابة ، إذ كان فى ينُعها جفاف الحصاد ومع ربيعها ناضج الثمر .

لقد وُلدت بيننا وشبّت ولكنها كانت كنازحة من بلاد الشمال .

وكانت عيناها تحملان دوماً دهشة من لم يألف بعدُ وجوهنا .

وكانت متعالية تعالى مريم النّبية أخت هارون التى خرجت بإخوتها من وادى النيل إلى الفيافى .

ثم زُفّت مريم إلى يوسف النجار .

وحينما حملت مريم بعيسى كانت تسعى بين التلال وتعود مع المساء ، تفيض عيناها جمالا وأسى .

وعندما ولد عيسى نُبِّئتُ أن مريم قالت لأمها : ما أنا إلاّ شجرة لما تُشذَّب بعدُ فانظُرى أنت فى هذه الثمرة .

ولقد سمعت قولها هذا مارية القابلة .

وزرتها بعد أيام ثلاثة فرأيت فى عينيها عجباً ، ورأيت صدرها يتَصَعَّد وذراعها تحيط بوليدها البكر إحاطة الصدفة باللؤلؤة .

وكنا كلنا نحب وليد مريم ونرعاه ، فلقد بعث وجوده فينا الدفء ، وكانت تساير نبضات قلبه خطوات الحياة .

وكرّت الفصول وأصبح الطفل صبيًّا كثير الضحك قليل التجوال .

وما كان أحد منا يعلم ماذا يدور فى رأسه ، إذ كان يبدو لنا دوماً أنه ليس من جيلنا . وما لامه أحد قط ، على ما كان فيه من جرأة ومخاطرة .

وقد كان يبادئ الأطفال الآخرين باللعب وما لعبوا هم معه مختارين .

وذات يوم عندما كان فى الثانية عشرة من عمره أخذ بيدى رجل أعمى وعبر به مسيل ماء حتى بلّغه مأمنه من الطريق العام .

وسأله الرجل الأعمى مقرًّا بفضله : أيها الصبىّ الصغير ، من تكون ؟

فأجاب : لست هذا الصبى الصغير ، إننى أنا عيسى .

وقال الأعمى : ومن أبوك ؟

فأجاب : إلى الله أعزى .

فضحك الرجل الأعمى وقال : نعم ما تقول يا بنى الصغير . ولكن من تكون أمك ؟

فأجاب عيسى : لستُ ذلك الابن الصغير ، وإن أمى لهى الأرض .

فقال الرجل الأعمى : إذن فتدبّر ، لقد قادنى ابن للرب والأرض عبر المجرى .

فأجاب عيسى : وسوف أقودك حيثما تذهب ، وسوف تلازم عيناى قدميك .

* * *

ثم شبّ كما تشبّ النخلة الكريمة فى حديقتنا .

وعندما بلغ التاسعة عشرة كان مليحاً ملاحة الأيل . وكانت عيناه فى صفاء الشّهد مليئتين بدهش الأيام ، وفى فمه كان ظمأ قطيع الصحراء إلى البحيرة .

وكان يقطع الحقول وحيداً ، وإن عيوننا وعيون العذارى فى الناصرة لتلاحقه ولكنا كنا معه حييّات .

والحب أبداً على استحياء من الجمال ، غير أن الجمال لا ينفك أبداً يلاحقه الحب .

ثم أتاحت له السنون أن يتكلم فى المعبد وفى بساتين الجليل . وكانت مريم تتبعه فى بعض المرات لتستمع إلى كلماته وتصغى إلى صوته المنبعث من قلبها .

ولكنه عندما انحدر هو ومريدوه إلى بيت المقدس لم تشأ أن تذهب .

إذ نحن معشر أهل الشمال كثيراً ما نتعرّض للسخرية فى شوارع بيت المقدس وإن كنا ذاهبين نحمل قرابيننا إلى المعبد . وكانت مريم ذات عزّة لا تهون معها لأهل الجنوب .

ولقد زار عيسى بلاداً أخرى فى الشرق والغرب . وما عرفنا أى بلاد زار ، غير أن قلوبنا كانت تلاحقه .

ولكن مريم لبثت تنتظر على عتبة دارها .

وكانت مع كل مساء تتطلّع بعينيها إلى الطريق ترقب أوبته .

وحين كان يعود كانت تقول لنا : إنه أكبر من أن يكون لى ابنا ، وأفصح من أن يعزى إلى قلبى الصامت .

ترى كيف أعزوه لنفسى ؟

ولقد بدا لنا أن مريم لم تجسر على أن تصدّق أن السّهل قد تمخّض عن الجبل ، ولم تر بصفاء قلبها أن الحافة هى الطريق إلى القمة .

لقد عرفت الرجل ، وإذ كان ابنها آثرت ألاّ تعرفه .

وذات يوم عندما ذهب عيسى إلى البحيرة ليكون بين الصيادين قالت لى :

« هل الإنسان إلاّ هذا الكائن الدائم القلق خرج من الأرض ؟ وماذا يكون غير شوق يروم النجوم ؟

إن ابنى لشوق ، وهو كل ما فينا من حنين إلى النجوم .

هل قلت: ابنى ؟ غفر الله لى . وإن كنت فى أعماق قلبى مشوقة إلى أن أكون أمه . »

* * *

وعسير أن نمضى فى الحديث عن مريم وابنها . غير أنى، وإن غَصَّ حلقى وسعت إليكم كلماتى سعى الأعرج على عكازته ، فلزام علىّ أن أقصّ ما رأيت وما سمعت :

كنا فى مستهل العام والشقائق الحمراء تكسو التلال فدعى عيسى حوارييه وقال لهم : « تعالوا معى إلى بيت المقدس لتشهدوا ذبح الحمل فى عيد الفصح . »

وفى اليوم نفسه جاءت مريم إلى باب دارى وقالت : إنه خرج يسعى إلى المدينة المقدسة ، هلا جئت وإياى وسائر النسوة نتبعه ؟

فقطعنا ذلك الطريق الطويل فى إثر مريم وإثر ابنها حتى أدركنا بيت المقدس . وهناك عند البوابة وقف جمع من الرجال والنساء يرحّب بنا ، إذ كان نبأ وصوله قد زُفَّ إلى أحبائه .

ولكن عيسى وصحبه غادروا المدينة فى الليلة نفسها . وخُبّرنا أنه ذهب إلى بيت عَنْيَه .

وظلت مريم معنا فى النزل تنتظر أوبته .

ومع المساء من يوم الخميس اللاحق قُبض عليه خارج الأسوار ، ثم أودع السجن .

وعندما سمعنا بأنه سجين لم تنبس مريم بكلمة ، ولكن بدا فى عينيها أنْ قد تحقق ما وُعدت به من أسى وفرح ، استشففناهما وهى عروس فى الناصرة .

وما بكت . وما زادت على أن اضطربت بيننا كما يضطرب طيف أمّ لاتريد أن تندب طيف ابنها .

وافترشنا الأرض جلوساً ، غير أنها ظلّت منتصبة تمشى فى الحجرة جيئة وذهاباً .

تراها تارةً واقفة إلى جانب الشباك تتطلع نحو المشرق ، ثم تسوّى شعرها إلى الوراء بأصابع يديها الاثنتين .

وأطلّ الفجر وهى لا تزال واقفة بيننا وكأنها راية فى ميدان قتال خلا من المحاربين .

وبكينا ، فقد عرفنا ما سيطالع به الغد ابنها -- ولكنها لم تبك لأنها هى الأخرى ، كانت تعلم ما سيحدث له .

كانت عظامها من البرنز وعروقها من أشجار الغار العتيقة ، وعيناها مثل السماء رحابة واستبسالا .

هل عهدتم الطائر الغرد يشدو وعشه يحترق فى مهب الريح ؟

أرأيتم امرأة يعزّ حزنها على البكاء ، وقلباً جريحاً يريد أن يسمو على آلامه ؟

إنكم لم تروا امرأة كهذه ، لأنكم لم تمثُلوا فى حضرة مريم ولم يضمكم

حضن الأم المحجوبة عن الأعين .

في تلك اللحظة الساكنة ، عندما دقّت حوافر الصمت الملفوفة صدور الساهدين طلع علينا يوحنا أصغر أبناء زبدى وقال : أيتها الأم مريم : إن عيسى ماض . تعالى لنتبعه .

ووضعت مريم يدها على كتف يوحنا وخرجا ، ومضينا نتبعهم وعندما أدركنا برج داود أبصرنا عيسى يحمل صليبه ، ومن حوله جمع عظيم .

وكان هناك رجلان يحملان هما الآخران صليبيهما ، ومضت مريم معنا خلف ابنها مرفوعة الرأس ثابتة الخطى .

ومن خلفها سعت صهيون وروما — نعم . . . الدنيا جميعها لتثأر لنفسها من رجل حرّ .

وعندما أدركنا التل رفعوه عالياً على الصليب ونظرت إلى مريم ، فإذا وجهها ليس وجه امرأة ثكلى ، وإذ هو يحمل ملامح الأرض الخصبة تنسل أبداً وتُنجب ما تلد أبداً .

ثم عاودت عينيها ذكرى طفلها فقالت في صوت جهورى : « بنيّ الذى ليس لى بابن ، أيها الرجل الذى أنِست به بطنى مرة ، إنى لفخورة بصولتك . وإنى لعلى يقين بأن كل قطرة من دم تنحدر من يديك سوف تستحيل مجرى مباركاً لأمة ، وكما مات قلبى مرة مع مغرب الشمس تموت أنت مع هذه العاصفة ، ولن أحزن . »

وفى هذه اللحظة رغبت فى أن أستر وجهى بمعطفى وأفرّ إلى الشمال .

ولكني ، بغتة ، سمعت مريم تقول : « بنيّ ، الذى ليس لى بابن .
ترى أى شيء قلت لهذا الرجل الذى على يمينك فجعلته يستقبل محنته باشاً
وتخفّ ظلمة الموت فى وجهه ، ولا تملك عيناه عنك حولا ؟
وإنك لتبتسم الآن إلىّ ، وحين ابتسمت عرفت أنك قد غلبت . »
وتطلّع عيسى إلى أمه وهو يقول : « يا مريم كونى منذ الآن أمّاً
ليوحنا . »

كما قال ليوحنا : « كن ابناً باراً بهذه المرأة . امض إلى بيتها ولتجعل
ظلّك يعبر العتبة حيث وقفت أنا مرّة . افعل هذا إشادة بذكرى . »

ورفعت مريم يمينها صوبه . فكانت أشبه بشجرة ذات غصن واحد ،
ثم صاحت ثانية : « بنيّ الذى ليس لى بابن ، إذا كان هذا من عند الله
فليمتحنا الله صبراً عليه وعلماً به ، وإذا كان بفعل الإنسان فليغفر له
الله أبداً .

إذا كان من عند الله فسوف تكون ثلوج لبنان لك كفناً ، وإذا كان
بفعل هؤلاء الكهنة وأولئك الجنود وحدهم فلك عندى هذا الثوب يستر
عريك .

بنيّ الذى ليس لى بابن ، ما يبنيه الله فى الحياة الدنيا لن يبيد أبداً ،
وما يريد العبد أن يخرّبه يبقى مشيداً ، وإن لم تقع عليه عينه . »

وفى تلك اللحظة أسلمته السماء إلى الأرض صرخة وأنفاساً ، كما أسلمته
مريم إلى بنى الإنسان جرحاً وباسماً .

ثم قالت مريم : « والآن ها هو ذا قد ذهب ، وقد انتهت المعركة وتألق النجم حقاً ، وأدركت السفينة مرساها ، وغدا هذا الذى كان مرة مضموماً إلى قلبي ينبض فى الفضاء . »

واقتربنا منها فقالت لنا : « حتى على الموت يبتسم . لقد انتصر ، وإنى لأبغى أن أكون حقاً أماً لمنتصر . »

ورجعت مريم إلى بيت المقدس تعتمد على يوحنا ، الحوارى الصغير . وكانت امرأة قد وفت .

* * *

وعندما أدركنا بوابة المدينة حدقت فى وجهها فاعترتنى دهشة ، إذ عند ذلك اليوم كان رأس عيسى هو الأعلى بين رءوس الناس ، ولم يكن رأس مريم دونه علواً .

كل هذا وقع فى الربيع من العام .

وها هو ذا الخريف قد جاء ، وعادت مريم أم عيسى ثانية إلى مسكنها ، وإنها لوحيدة .

ومنذ سبتين مضيا كان قلبي كأنه قطعة من حجر فى صدرى ، إذ كان ابنى قد خلفنى ليستقل سفينة فى صور ويكون ملاحاً . وقال لى إنه لن يعود .

وذات مساء سعيت إلى مريم .

وعندما دخلت عليها بيتها كانت جالسة إلى نولها . ولكنها لم تكن

تنسج بل كانت تتطلع إلى السماء فيما وراء الناصرة .

فقلت لها : سلام عليك يا مريم .

فمدت إلىّ ذراعها وقالت : تعالى واجلسى إلى جانبى ولنرقب الشمس وهى تصبّ دمها على التلال .

وجلست إلى جانبها نتطلّع على المقعد إلى المغرب من النافذة .

وبعد برهة قالت مريم : ترى من يَصْلِب الشمس هذا المساء ؟

عندها قلت : لقد سعيت إليك أبغى السكينة ، فلقد تركنى ابنى وركب البحر ، وإنى لوحيدة فى دارى على جانب الطريق .

فقالت مريم : بودّى أن أهوّن عليك ولكن أنَّى لى .

فقلت : تهوّنين علىّ إذا ما تحدّثت عن ابنك .

وابتسمت لى مريم وطوّقت بيدها كتفى وقالت : سأتحدّث عنه ، وما يَهَبُكِ العزاء من حديثى سوف يهبنى العزاء .

ثم تحدثت عن عيسى ، وأخذت تسهب فيما كان منذ البداية .

ولقد بدا لى أنها لا تفرّق فى حديثها بين ابنها وابنى .

فلقد قالت لى : إن ابنى هو الآخر ملاّح ، ولا أدرى لماذا لا تأمنين الموج على ابنك كما أمنته على ابنى ؟ ستظل المرأة أبداً الرحم والمهد ، ولن تكون قط الجدث . وإنا لنموت لنمدّ الحياة بالحياة ، كما تغزل أصابعنا خيوط ثوب لن نرتديه أبداً . وكما نُلقى الشبكة لصيد سمكة لن نطعمها أبداً .



وإنا لنحزن لكل هذا ، غير أن فى هذا جميعه فرحًا لنا .

هكذا تحدثت مريم إلىّ .

ولقد خلفتها وعدت إلى بيتى ، ورغم أن بياض النهار كان قد ولّى فقد جلست إلى نولى لأنسج المزيد .



يوسف الملقّب : العادل

كانوا يقولون إنه سُوقى ، نبات غير متميّز من أصل غير متميّز ، ورجل فظ غليظ .

ويقولون : ما كان يمشط شعرَه غيرُ الريح ، وما كان يجمع بين جسده وثيابه غيرُ المطر .

ويعدّونه ذا جِنّة ، ويعزون كلماته إلى الشياطين .

ولكن ها هو ذا الرجل المهين قد ارتفع صوته متحدياً ، ولسوف يبقى التحدى إلى الأبد متصلا .

لقد أنشد أنشودة ولن يقدر لأحد أن يُسْكت لها نغماً . بل سوف يحلّق هذا النغم من جيل إلى جيل ، ويصعد سماء وراء سماء ذاكراً تلك الشفاه التى عليها نشأ ، وتلك الآذان التى كانت له مهداً .

كان غريباً . أجل كان غريباً . عابر سبيل اتخذ سبيله إلى مقام القديسين ، وزائراً طرق علينا بابنا ، وضيفاً ألمّ من قُطر بعيد .

وإذ لم يجد مُضيفاً كريماً عاد أدراجه إلى حيث يقيم .

فيلبوس

حين مات من نحب مات الناس ، ولفترة ما غشى الكائنات جميعاً وجوم وعلتها غبرة .

ثم أظلم الشرق وهبت منه عاصفة اقتلعت ما على الأرض .

وتفتحت عيون السماء وانطبقت وانهمر المطر مدراراً ليجرف الدم الذى جرى من يديه وقدميه .

ولقد مت أنا الآخر .

غير أنى فى مدارج نسيانى أسمعه يتحدث ويقول : رباه اغفر لهم فإنهم لا يعلمون ماذا يفعلون .

وسعى صوته يطلب روحى الغريقة ، وإذا بى أعود إلى الشاطئ ، وفتحت عينى فرأيت جسده الأبيض معلقاً أمام السحاب ، وأخذت كلماته التى سمعتها تتشكل فى نفسى واستحالت رجلا جديداً . ولم أعد آسى .

ومن ذا الذى يأسى للبحر يكشف عن وجهه ، أو للجبل يضحك فى نور الشمس ؟

هل حدث قط أن نطق قلب الإنسان ، وهو هكذا مطعون ، بمثل هذا الكلم ؟ وأى حكم على الناس غيره برأ من حكموا عليه ؟

وهل تحدّت المحبةُ الكراهية أبداً فى قوة أكثر من قوتها تلك وثوقاً بنفسها ؟

وهل سُمع مثل هذا النفير قط بين السماء والأرض ؟

وهل عُرف من قبل أن قتيلا أخذته الرحمة بقاتليه ؟

أو أن الشهاب عوّق من سيره من أجل خُلْد ؟

لسوف تفنى الفصول وتتخاذل الأعوام من قبل أن تنفد هذه الكلمات :

« رباه اغفر لهم فإنهم لا يعلمون ماذا يفعلون . »

وإنى وإياك — على توالدنا مرة بعد مرة — سوف نعيها .

وبودّى الآن أن أذهب إلى بيتى وأمْثُل فى باب العلىّ سائلا رفيع الشأن .



بربارة اليمونية

كان عيسى يصبر للغبي والأحمق ، وكأنه الشتاء يترقب الربيع .

كان صبوراً صبر الجبل فى مهب الريح .

وكان رفيقاً فى إجابته على أسئلة خصومه الفظة .

بل كان يؤثر الصمت على المداورة والمجادلة ، إذ كان قوياً ، والقوى شديد الاحتمال .

ولكن عيسى كان كذلك غير صبور .

فما كان يصبر للمرائين .

وما كان يخضع للماكرين من الرجال ولا للذين يتلاعبون بالقول ، ولم يشأ أن ينقاد .

كان ضيقاً بهؤلاء الذين لا يؤمنون بالنور ، إذ كانوا هم أنفسهم يعيشون فى الظلام ، وبهؤلاء الذين يتطلعون إلى آيات السماء أكثر من تطلعهم إلى آيات قلوبهم .

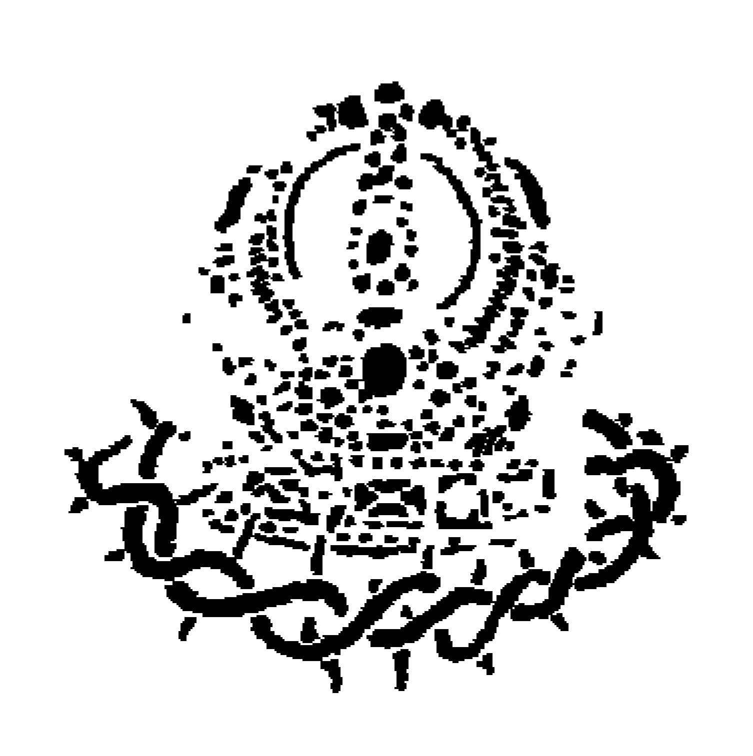
كان ضيقاً بهؤلاء الذين يزنون النهار والليل ويقيسونهما ، ولما يأتمنوا الفجر أو المساء على أحلامهم .

كان عيسى صبوراً .

غير أنه كان أعظم الناس ضيقاً !

يودّ لك أن تنسج الثوب ولو أنفقت السنين بين النول والكتان ،

غير أنه حريص على ألا ينتزع قيد أنملة من نسيج مصنوع .



من زوجة بيلاطس
إلى سيّدة رومانيّة

كنت أسير بين وصيفاتى فى الحجرات خارج بيت المقدس حين رأيناه بين قلة من الرجال والنساء جالسين حوله .

وكان يتحدث إليهم بلغة لم أفهم غير شطر منها .

غير أن الإنسان لا تعوزه لغة ليتبيّن عموداً من نور أو جبلا من بلّور ، فالقلب يدرك ما قد لا تدركه الآذان أبداً وما قد لا يفوه به اللسان.

كان يتحدث إلى صحابه عن الحب والقوة .

وقد أدركت أنه يتحدّث عن الحب ، إذ كان فى صوته تنغيم .

وأدركت أنه يتحدّث عن القوة ، إذ كانت الجيوش فى إشاراته .

وكان رقيقاً وإن كان زوجى لا يملك أن يتكلم بمثل جبروته .

وعندما رآنى أمرّ به ، وقف عن الكلام برهة وتطلع إلىّ فى رفق، فتخاذلت وأيقنت أنى أمرّ بجبّار عظيم .

ومنذ ذلك اليوم تلمّ صورته بى فى خلوتى حتّى عندما أعتزل الرجال والنساء ، وتطلب عيناه روحى حتّى عندما تكون عيناى مغمضتين ؛ ويهيمن صوته على سكون ليالىّ .

لقد أوثقت وثاقاً إلى الأبد ، وإنى لأجد راحة فى آلامى وانطلاقاً فى بكائى .

أيتها الصديقة الحبيبة ، أنت لم ترى ذلك الرجل أبداً وسوف لا ترينه أبداً .

لقد ذهب إلى حيث لا يحيط به إدراكنا ، ولكنه الآن أقرب الرجال جميعا إلىّ .



رجل
خارج بيت المقدس

فى يوم الجمعة ذاك ، وفى عشية عيد الفصح سعى يهوذا إلى بيتى وطرق بابى فى قوة .

وعندما دخل تطلّعت إليه فإذا وجهه مُغْبَرّ فى لون الرماد ، وإذا يداه تُرعدان رِعدة الأغصان اليابسة فى مهب الريح ، وإذا ثيابه مبتلة وكأنه خارج من نهر .

فلقد كان مساء عاصفاً أشد العصف .

فنظر إلىّ وكأن محجرى عينيه كهفان مُعتمان وبدت عيناه مخضلّتين بالدم .

وقال : لقد أسلمت عيسى الناصرى إلى أعدائه وأعدائى .

ثم لوى يهوذا يديه وقال : لقد جهر عيسى بأنه سوف يدحر أعداءه جميعاً وأعداء أهله . ولقد صدقته وتبعته ، وعندما دعانا إليه أولا وعدنا مملكة قوية ممتدة ، وفى غمرة التصديق خطبنا ودّه سعياً إلى المراكز الرفيعة فى بلاطه .

ورأينا أنفسنا أمراء نُعامل هؤلاء الرومان كما عاملونا . ولقد تحدّث

عيسى كثيراً عن مملكته ، وخلت أنه اختارنى قائداً لعجلاته الحربية وزعيماً لمحاربيه . وتبعت خطاه عن رغبة، غير أنى عرفت أنها لم تك مملكة تلك التى نشدها عيسى ولا هو كان يريد تحريرنا من الرومان .

لم تك مملكته غير مملكة القلب . فلقد سمعته يتكلم عن الحب والإحسان والعفو ، وأصغت إليه النساء على جنبات الطريق فرحات ، غير أن قلبى استحال مريراً قاسياً .

وفجأة بدا لى ملكُ اليهودية الذى وُعدت به وقد استحال عازف مزمار يصانع عقول الضالّين والشاردين ويداهنها .

ولقد أحببته كما أحبه الآخرون من أبناء قبيلتى . ورأيت فيه أملا وخلاصاً من نير الأجانب . غير أنه حين لم يشأ أن ينطق بكلمة أو يحرك يداً ليخلّصنا من ذلك النير ، وحين زاد فدعا إلى أن يسلم ما لقيصر لقيصر ، عندها ملأنى اليأس وماتت الآمال فى قلبى وقلت : إن هذا الذى قتل آمالى حقيق أن يُقتل إذ أن آمالى وما أرقب أعزّ علىّ من حياة أى إنسان .

ثم صرّ يهوذا بأسنانه وطأطأ رأسه : وعندما عاد يتكلم قال: لقد أسلمته . ولقد صُلب اليوم . غير أنه حين مات على الصليب مات ملكاً ، مات فى العاصفة كما يموت المخلصون ، مثله مثل الرجال الذين يحيون وإن ضمتهم الأكفان وواربتهم الصخور ، وكان رفيقاً وكان رقيقاً طوال الفترة التى أسلم فيها روحه . ولقد امتلأ قلبه أسى حتى لقد أَسِى لى أنا الذى أسلمته .

قلت : يا يهوذا ، لقد اقترفت إثماً عظيماً !

فأجاب يهوذا : لكنه مات ملكاً فما باله لم يعش ملكاً ؟

وعدت أقول : لقد أجرمت جرماً عظيماً !

فجلس هناك على ذلك المقعد لا حراك به كالحجر ، وغدوت فى الحجرة جيئة وذهاباً . ومرة أخرى قلت : لقد ارتكبت خطيئة كبرى !

فلم ينطق يهوذا بكلمة ، وبقى صامتاً صمت الأرض .

ثم انتصب واقفاً بعد برهة ووجهه إلى وجهى وبدا لى أطول مما كان. وحين تكلم كان صوته أشبه بصوت الإناء المشدوخ وقال : لم أعقد على الخطيئة قلبى ، وسأنشد مملكته هذه الليلة عينها، وسوف أمثل بين يديه وأسأله المغفرة . مات ملكاً . وسأموت أنا آثماً . غير أنى أعرف فى قرارة نفسى أنه سوف يغفر لى .

وبعد أن قال هذه الكلمات التفع بعباءته المبلّلة وقال : حسناً فعلت حين جئت إليك هذه الليلة وإن كنت قد حمّلتك مشقة ، هل لك أن تغفر لى أنت الآخر ؟ قل لأبنائك وأبناء أبنائك إن يهوذا الأسخريوطى أسلم عيسى الناصرى لأعدائه لأنه ظن أن عيسى عدو لبنى جنسه . وكذلك قل إن يهوذا ، فى اليوم نفسه الذى وقعت فيه خطيئته العظمى ، تبع الملك على درجات عرشه ليسلم نفسه ولينال قصاصه .

سأقول له إن دمى هو الآخر كان لهفاً إلى الانسياب على الحصباء ،

وإن روحي المكبلة كانت تتشوّف إلى خلاصها .

ومال يهوذا إلى الوراء برأسه على الجدار وصرخ : «أيها الرب، يا من لا يهمس باسمه المهيب إنسان قبل أن تمس أصابع الموت شفتيه . لماذا حرقتني بنار لا نور لها . ولم منحت الجليلي هوًى إلى أرض لا علم لنا بها ، وأثقلت كاهلي بشوق لا يرتفع عن حب الأقارب وأنس البيت ؟ ومن ذا يكون يهوذا الذي غمس يديه في الدم ؟

مُدّ لي يداً لأطرحه بعيداً كما يُطرح الثوب الخلَق وكما تُطرح عُدّةُ الخيَلِ الرّثة .

أعنّي لأفعل هذا ليلتي هذه .

وخلّني أقف ثانية خارج تلك الأسوار .

لقد أثقلتني هذه الحرية التي لا جناح لها وإني لراغب في سجن أكبر .

ليتني أسكب جدولا من الدموع فينساب إلى البحر الأُجاج .

ليتني أكون إنسانا وسعته رحمتك ، لا إنسانًا يقرع باب قلبه .»

بهذا تكلم يهوذا ، وعندها فتح الباب ورمى بنفسه في أحضان العاصفة .

* * *

وزرت بيت المقدس بعد أيام ثلاثة وسمعت بكل الذي وقع ومرّ ، كما سمعت أن يهوذا ألقى بنفسه من قمة الصخر العالية .

وفكرت طويلا منذ ذلك اليوم وأدركت ما عند يهوذا . لقد اكتملت له حياة صغيرة القدر طوّفت كما تطوّف الضبابة فوق هذه البلاد التى استعبدها الرومان على حين كان النبي العظيم يسمو إلى العلا .

فهذا رجل كان يتوق إلى مملكة يكون فيها أميراً .

وذاك رجل كان يرغب فى مملكة يكون فيها كل الرجال أمراء .



سركيس
راع يونانى عجوز
يدعى: "المجنون"

فى حلم رأيت عيسى وإلهى « پان » إله الرعاة جالسين معاً فى جوف الغابة يضحك كل منهما من حديث صاحبه ، والجدول يجرى قريباً منهما وكان ضحك عيسى أبلغ مرحاً . ثم تحدثا طويلا .

فتكلم إله الرعاة عن الأرض وأسرارها ، وعن إخوته ذوى الحوافر ، وعن أخواته ذوات القرون ، وعن الأحلام .

ثم تكلم عن الجذور وما يقوم حولها ، وعن العصارة التى تنهض وترقى لتصدح مع الصيف .

وتحدث عيسى عن البراعم الصغيرة فى الغاب ، وعن الأزهار وعن الثمار ، وعن الحبوب التى سوف ترعاها لفصل لـمـَّا يأت بعد .

وتكلم عن الطـَّير فى الفضاء وهى تصدح فى دنياها العلية . وتحدث عن الأيايل البيضاء فى الصحراء يرعاها الله .

وكان إله الرعاة طروباً بحديث الإله الجديد ، تنبسط خياشيمه من فرط السرور .

وفى الحلم عينه تبينت إله الرعاة وعيسى عليهما هدأة الظلال النّديّة وسكونها .

ثم أخذ إله الرعاة قصباته وجعل يـَزْمـُر لعيسى فاهتزّت الأشجار واضطرب السّرخس وغشيني رعب .

فقال عيسى : أيها الأخ الصالح ، إن فى صوت مزمارك مسارب الغاب ومرتفعات الصخور .

ثم أعطى إله الرعاة القصبات لعيسى وهو يقول : الآن زمرك ، فهذا دورك .

وقال عيسى : إن هذه القصبات فوق ما يقوى عليها فمى . وها هو ذا مزمارى .

وأخذ مزماره وزمر .

فسمعت فى لحنه صوت المطر على أوراق الأشجار وهدير الجداول بين التلال وتساقط الثلوج على قمم الجبال .

وأخذت نبضات قلبى التى خفقت يوماً مع الريح تستأثر بها الروح من جديد ، وتجمعـّت أمواج أمس كلها على شاطئى ، وأصبحت ثانية سركيس الراعى ، وأصبح مزمار عيسى مزامير لعدد لا يحصى من الرعاة تدعو قطعاناً لا يحيط بها عـَدٌّ .

عند ذلك قال إله الرعاة لعيسى : « إنك فى اقتبال عمرك لأقرب إلى المزمار منى بما طويت من أعوام .

وقبل هذا بأمد طويل سمعت فى سكونى أنشودتك وهمس لى هامس باسمك .

إن لاسمك رنيناً حلواً ، وليرقين طيباً مع العصارة إلى الغصون ، وليجرين طيباً مع وقع الحوافر بين التلال .

وما كان اسمك غريباً علىّ ، على الرغم من أن أبى لم يدْعنى به . ولقد كان مزمارك هو الذى أعاد هذا إلى ذاكرتى .

والآن فلنزمر فى قصبتينا معاً . »

وزمرا معاً .

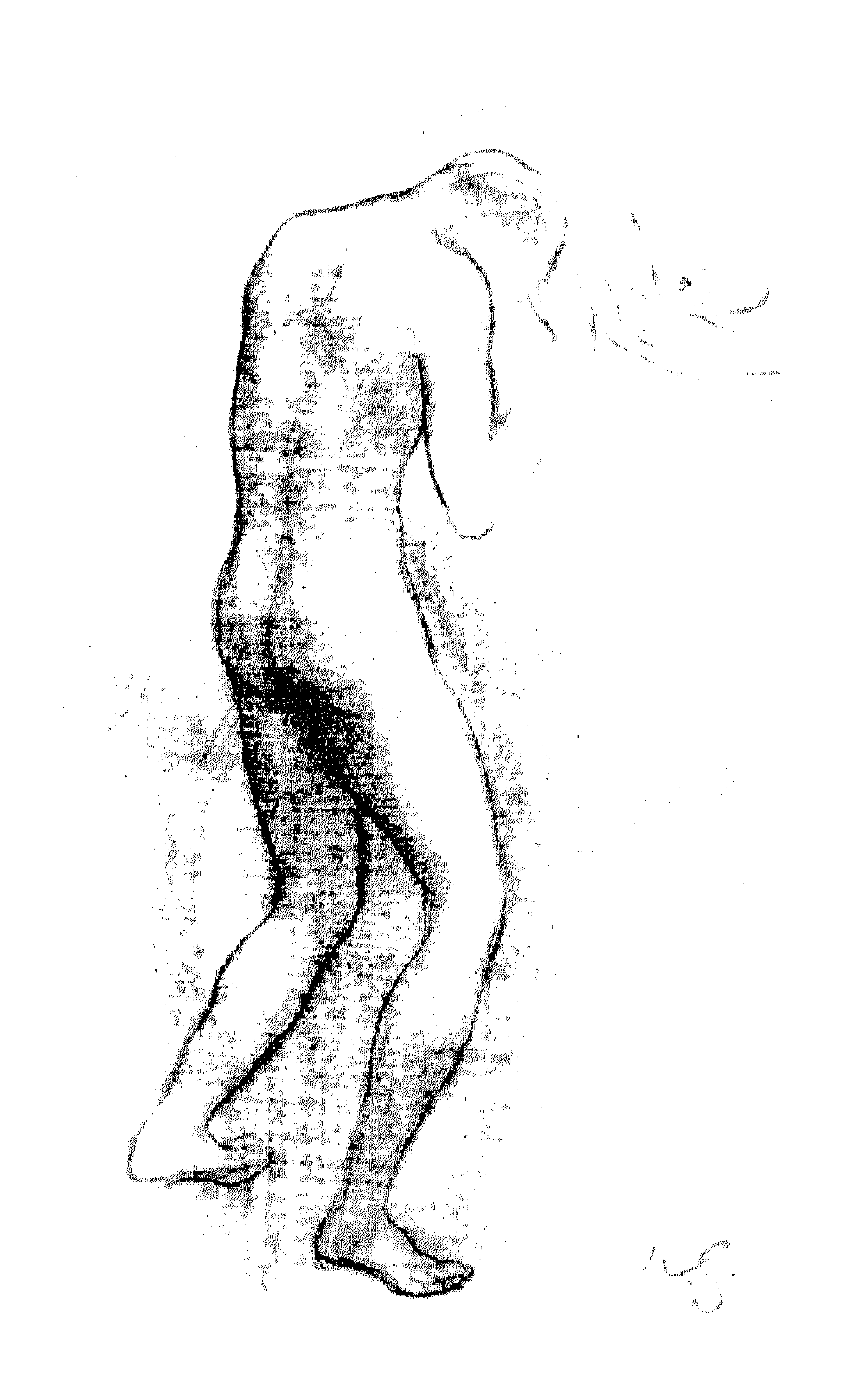
فاهتزت لموسيقاهما السماء والأرض ، وشمل الرعب الكائنات الحية جميعاً .

ولقد سمعت حين سمعت إلى الوحوش وهى تجأر ، والغابات يرن فيها صوت الجوع ، وسمعت صراخ الناس حين ينقطعون ولهفة الذين يتشوفون إلى ما لا يعرفون ، وسمعت العذراء وهى تتحرق إلى من تحب ، وسمعت الصائد العاثر الجد وهو يلهث فى إثر فريسته .

ثم حل السلام بموسيقاهما فإذا السماء والأرض تغنيان معاً .

هذا كله رأيته فى حلمى ، وهذا كله سمعته .





حنّان رئيس الكهنة

كان رجلا من الغوغاء، قاطع طريق، مشعوذاً بُوقًا لنفسه، لا يركن إليه إلا المدنّسون الأدعياء . وهو لهذا كان لا بد له من سلوك طريق الملوّثين الدنّسين . وكان يتخذنا ويتخذ شرائعنا هزُواً . يهوّن من مراتبنا ويحطّ من أقدارنا . بل كان يقول : إنه سوف يخرّب المعبد وينتهك حرمات الأماكن المقدسة . كان لا حياء عنده ، ومن أجل هذا كان حتمًا أن يموت ميتة مهينة .

كان رجلا من الجليل، أرض المارقين ، غريباً من الأقطار الشمالية حيث لا يزال أدونيس وعشطروط خارجين على إسرائيل ورب إسرائيل ، ينازعانهما السلطان .

وكان هذا الذى يتعثّر لسانه حين يحدّث حديث أنبيائنا ، عالى الصوت يُصم الآذان حين يتكلم كلام الأرذال من السّفلة وذوى المهد الوضيع . وهل كان أمامى إلا أن أقضى بموته ؟ ألم أكن حارساً للمعبد ؟ ثم ألم أكن حامياً للقانون ؟ أكان فى مقدورى أن أوليه ظهرى وأقول مطمئنًا الاطمئنان كله : إنه معتوه بين معتوهين ، خلّه وشأنه ليفرغ ما عنده من هذيان ، إذ المعتوه ومن به خبل وهؤلاء الذين استحوذت عليهم الشياطين سوف يكونون نسياً منسيًّا فى طريق إسرائيل ؟

أكان فى مقدورى أن أصم أذنى عندما دعانا كاذبين مرائين ، ذئاباً وأفاعى وأبناء أفاعى ؟ ما كان بوسعى أن أعيره أذناً غير واعية ، إذ لم يكن معتوها ، بل كان رابط الجأش . وبعقله الراجح العالى الصوت شهّر بنا جميعاً وتحدّانا ، لهذا قويت على أن أصلبه . وكان صلبه بلاغاً ونذيرًا لهؤلاء الذين طبعوا بطابعه اللعين . وإنى لأدرى حقًّا أننى على هذه ملوم ، حتى من شيوخ مجلس اليهود ! غير أنى حرصت إذ ذاك ، وما زلت الآن أحرص على أن يموت رجل واحد من أجل الشعب بدلا من أن يقاد الناس إلى الضلال على يد رجل واحد .

لقد غُزيت أرض الميعاد من قبل بعدوٍّ ليس منها . ولسوف أحرص على ألا يغزوها من بعد عدوّ من بينها .

ولن نسمح لرجلٍ من أرض الشمال الملعونة أن ينال من قدس أقداسنا ولا أن يقع ظله على تابوت العهد .

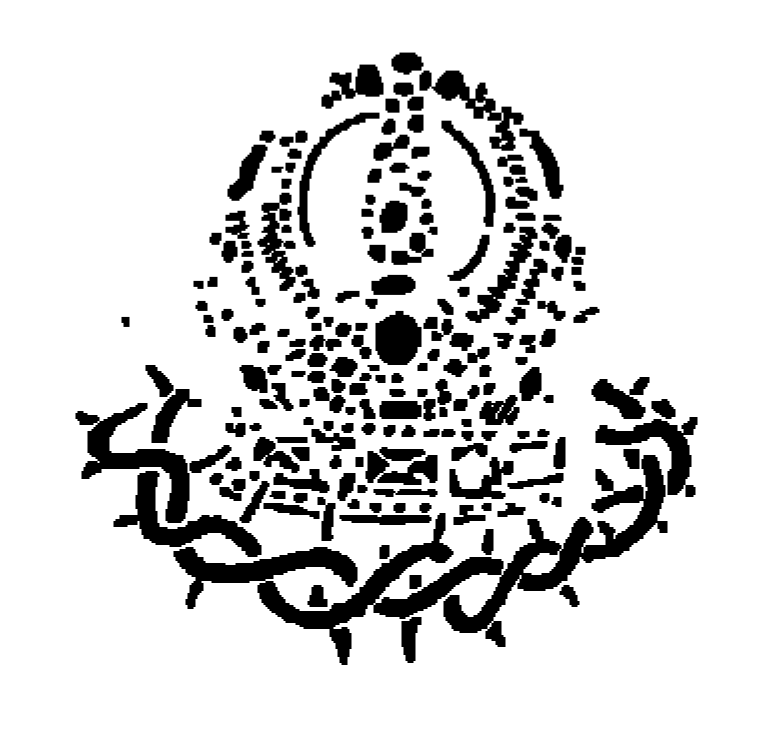


امــرأة
من جارات مريم

في اليوم الأربعين من موته خفّت جارات مريم كلهن إلى بيتها ليواسينها وينشدن نادبات . وأنشدت إحداهن هذه الأنشودة :

إلى أين يا ربيعي إلى أين ؟
وإلى أي فضاء يصّاعد عبير شذاك ؟
وفي أية حقول سوف تَدْرُج ؟ ،
وإلى أية سماء سوف ترفع رأسك لينطق قلبك ؟
سوف ندوس هذه الوديان ،
ولن يكون لنا غير حقول جافة جرداء ،
وكل ما هو أخضر سوف تلفحه الشمس .
وسوف تنتج بساتيننا تفاحاً حامضاً ،
وكرومنا عنباً مرًّا .
وسيكون بنا ظمأ إلى نبيذك ،
وسوف تتوق خياشيمنا إلى عبيرك .

إلى أين يا زهرة ربيعنا الباكر إلى أين ؟
أتراك لن تؤوب ؟
أترى ياسمينك لن يُلم بنا من جديد ؟
ألن تَحُفَّ طريقنا شجيرات بخور مريم ؟
لتخبرنا أننا نحن الآخرين لنا جذور تتعمق الأرض ،
وأن أنفاسنا المتصلة ستظل أبداً تصعد إلى السماء .
إلى أين يا عيسى إلى أين ؟
يا من أنت ابن لجارتي مريم ،
ورفيق لابني .
إلى أين يا ربيعنا الباكر وإلى أية حقول ؟
هل من أوبة إلينا ثانية ؟
أتراك من فيض حبك تغدق على شواطئ أحلامنا المجدبة ؟



آحاز المهيب

أذكر الذكر كله آخر مرة لقيت فيها عيسى الناصرى .

أتى إلىّ يهوذا مع الظهر من يوم الأربعاء وطلب إلىّ أن أعدّ عشاء لعيسى وصحبه .

وأعطانى قطعتين من الفضة وقال : ابتع كل ما ترتئيه لازماً للطعام .

وبعد ما ولّى قالت لى زوجتى : « إن هذا لشرف حق »، إذ كان عيسى قد أصبح نبيًّا وأتى بمعجزات كثيرة .

وعند الغسق جاء وجاء معه أتباعه وجلسوا فى العلّية حول المائدة يسودهم الصمت والسكون .

وكانوا قد جاءوا كذلك فى العام المنصرم والعام الذى قبله ، غير أنهم إذ ذاك كانوا مرحين ، كسروا الخبز وشربوا النبيذ وغنوا أغانينا القديمة وتحدّث إليهم عيسى إلى منتصف الليل . وبعد هذا خلفوه وحده فى العلية ومضوا ليناموا فى حجرات أخرى إذ كان هو بعد منتصف الليل يرغب فى أن يكون وحيداً .

إذ ذاك يظل يقظاً ، حتى إنى لأسمع خطواته عندما أضطجع على فراشى .

غير أنه فى تلك المرة الأخيرة لم يكن سعيداً ، ولا أصحابه .

وكانت زوجتى قد أعدّت أسماكا من بحيرة الجليل ، وديكة برية من حوران محشوة بالأرز وحب الرمان ، كما حملت إليهم قدراً من نبيذى المعدّ من السعدان ، ثم خليتهم إذ شعرت أنهم راغبون فى الوحدة . ولقد لبثوا حتى ساد الظلام وعندها هبطوا جميعاً من العلية ، غير أن عيسى تلبث برهة عند أسفل الدرج وتطلع إلىّ وإلى زوجتى ثم وضع يده على رأس ابنتى وقال : طاب ليلكم جميعاً وسنعود ثانية إلى العلية ولكنا لن نغادركم فى مثل هذه الساعة المبكرة بل سنبقى إلى أن تشرق الشمس على الأفق .

بعد برهة وجيزة سنعود ونطلب مزيداً من خبز ونبيذ .

لقد كنت أنت وزوجك لنا مضيفين كريمين . وسوف نذكركما عندما نبلغ دارنا ونجلس إلى مائدتنا .

وقلت : يا سيدى : كان شرفاً لى أن أخدمك . ولقد نَفِسَ علىّ زيارتك لى أصحابُ الفنادق الأخرى ، وفى زهوة الفخر كنت أبسم لهم فى ساحة السوق وأحياناً أصطنع التجهّم .

وقال : حق لأصحاب الفنادق جميعاً أن يفخروا بخدمتهم ، فإن الذى يعطى الخبز والنبيذ أخ لمن يحصد ويجمع حزم الحنطة من أجرانها ، وشقيق لمن يعصر العنب على معاصر النبيذ . وكلكم رحماء تعطون من فضلكم حتى الذين يجيئونكم لا يملكون شيئاً غير الجوع والظمأ .

ثم التفت إلى يهوذا الأسخطريوطى ، الذى كان يحفظ كيس الرفقاء

وقال : أعطنى درهمين ، وأعطاه يهوذا دينارين قائلا : هذان هما آخر دينارين فى كيسى . فنظر إليه عيسى وقال : عن قريب ، عن قريب جداً سوف يمتلئ كيسك بالدراهم .

ثم وضع القطعتين فى يدى وقال : اشتر بهذين منطقة من الحرير لابنتك ثم مرها أن تلبسها فى عيد الفصح لتذكرنى . ثم نظر إلى وجه ابنتى ثانية وانحنى يقبل جبينها ثم قال ثانية : طاب ليلكم جميعاً .

ثم مضى لسبيله .

ولقد نبئت أن هذا الذى قاله لنا سجله على رقٍّ صديقٌ من أصدقائه ، غير أنى أعيده عليكم كما سمعته من شفتيه .

وأبداً لن أنسى جرس صوته عندما قال تلك الكلمات :

طاب ليلكم جميعاً .

وإذا شئت أن تعرف مزيداً عنه فسَل ابنتى . هى الآن امرأة ، ولكنها تعتز بذكريات طفولتها وكلماتها أكثر حضوراً من كلماتى .



بـاراباس

لقدْ أطلقوني وأمسكوا به ، فَـعَـلاَ وسقطتُ .

وأمسكوا به ضحية وقرباناً ليوم الفصح .

وحُـرِّرت من أغلالى وسرت فى زحمة الناس خلفه ، غير أنى كنت فى الحق حيًّا يسعى إلى قبره .

كان علىّ أن أهرب إلى الصحراء حيث تحرق الشمس عار الناس :

غير أنى مضيت مع هؤلاء الذين جرّوه للقتلَ ليحمل عنى وزرى .

وعندما سمروه إلى صليبه كنت واقفا أشهد .

رأيت وسمعت ولكن خيل إلى أنه لم يكن جسدى هو الذى يرى ويسمع .

وقال له اللص الذى صلب إلى يمينه : أيقطر دمك مع دمى ، دمك أنت يا عيسى الناصرى ؟

وأجابه عيسى يقول : « لولا هذا المسمار الذى يشدّ يدى لمددتها إليك وشددت على يدك .

لقد صلبنا معاً . ويا ليتهم أقاموا صليبك قريباً من صليبي ؟» .

ثم أطرق ينظر وتطلع إلى أمه وإلى رجل حدث كان يقف إلى جوارها .

وقال : « أماه ، ها هو ذا ابنك يقف إلى جوارك .
أيتها السيدة ارقبي رجلا سوف يحمل قطرات دمى إلى بلاد الشمال » .
وعندما استمع إلى نسوة الجليل يُعْوِلْن قال : ها هن أولاء يذرفن الدمع وإنى لعاطش .
ما أبعدنى فى مرتقاى عن أن أبلغ دموعهن !
وما أنا براو ظمئى بحامض أو مرّ » .
ثم جحظ بعينيه إلى السماء وقال : إلهى لم تخلّيت عنا ؟
ثم قال فى حنان : « رب اغفر لهم فإنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » .
وعندما نبس بتلك الكلمات حسبت أنى أرى الناس كلهم خرّوا سُجّداً بين يدى الله يضرعون إليه ليغفر لهم صلبهم لهذا الرجل الفرد .
ثم قال ثانية فى صوت جهورى : ربى إليك أسلم روحى ثانية .
وأخيراً رفع رأسه وقال : الآن قُضى الأمر ، ولكن فوق هذا التل من الدنيا فحسب .
ثم أغمض عينيه . .
عندها انصدعت السموات المظلمة بنور البرق وكان ثمة رعد شديد .
وإنى لأتبين الآن أن هؤلاء الذين ذبحوه عوضاً عنى قد قضوا علىّ بالعذاب المقيم .
فما بقى صلبه غير ساعة .
غير أنى سأظل مصلوباً حتى نهاية أعوامى .

كلوديوس
قائد رومانى

بعد أن أخذوه جعلوه أمانة فى يدى ، وأمرنى بيلاطس البنطى أن أودعه السجن إلى صباح اليوم التالى .

وقاده جنودى سجيناً ، وكان لهم مطيعاً .

وعند منتصف الليل تركت زوجى وأطفالى وزرت دار السلاح وكان من عادتى أن أتعسّس لأرى أن كل ما يتصل بكتائبى فى بيت المقدس على خير حال . وفى تلك الليلة زرت دار السلاح حيث كان بها سجيناً .

وكان جنودى ونفر من أحداث اليهود يتخذونه هزواً ، فقد نزعوا عنه ثوبه ووضعوا فوق رأسه تاجاً من أشواك الخلنج المتخلفة عن العام المنصرم .

وأجلسوه لقاء عمود وأخذوا يرقصون أمامه ويتصايحون :

وأعطوه قصبة ليمسك بها فى يده .

وعندما وصلت صاح نفر منهم : انظر أيها القائد ها هو ذا ملك اليهود .

ووقفت أمامه أنظر إليه . وأحسست الخجل وما عرفت مبعثه .

لقد حاربت فى بلاد الغال وفى إسبانيا ، وواجهت الموت برجالى

وما استشعرت الخوف أبداً ، كما لم يحدث أنى جبنت قط ، غير أنى حين وقفت أمام ذلك الرجل ونظر إلى ، انخلع قلبي ، وخيل إلىّ كأن شفتىّ أطبقتا وما عدت أقوى على أن أنبس بكلمة .

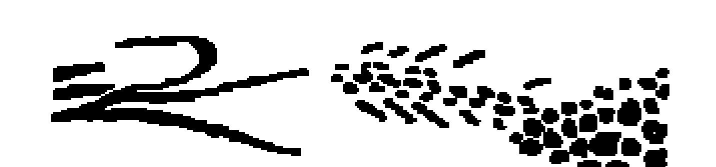
وسرعان ما غادرت دار السلاح .

حدث هذا منذ ثلاثين عاماً . وأولادى الذين كانوا أطفالا إذ ذاك قد غدوا رجالا وهم الآن يخدمون قيصر ورومه .

وكثيراً ما تحدثت إليهم عنه وأنا أبصّرهم ، فأضرب لهم به مثلا : رجلا استقبل الموت وماء الحياة على شفتيه والعطف على قاتليه فى عينيه .

وإنى الآن لشيخ عجوز ، عشت أعوامى كاملة وإنى لأومن حقّاً أنه لا پومپى ولا قيصر بلغا مبلغ ذلك الرجل الجليلى كقائد عظيم .

إذ منذ أن استسلم للموت هبّ جيش من أهل الأرض ليحارب من أجله . ولقد خدموه ميّتاً فوق ما خُدِمَ به پومپى أو قيصر حيّين .



يعقوب

آلاف من المرات عاودتني ذكرى تلك الليلة . وأعلم أنها لن تنفك تعاودني آلافاً أخرى من المرات .

هيهات لي أن أنسى تلك الليلة ، إلا إذا نسيت الأرض الأخاديد التي شقها المحراث على صدرها ، وغفلت الأم عن آلام الوضع وبهجته .

في الظهر كنا خارج أسوار مدينة بيت المقدس فقال لنا : « الآن فلنذهب إلى المدينة ولنَطْعَم عشاءنا ، في الخان » .

وكان الظلام قد خيم حين أدركنا الخان، وكنا جوعى، فحيانا صاحب الخان وقادنا إلى العِلية .

وأمرنا عيسى أن نجلس حول المائدة . غير أنه ظل وحده واقفاً وعيناه لا تتحولان عنا .

وتحدث إلى صاحب الخان وقال : هيئ لنا حوضاً وأبريق ماء ومنشفة .

ونظر إلينا ثانية وقال في رفق : اخلعوا نعالكم .

ثم أحضر صاحب الخان الحوض والإبريق وقال عيسى : الآن أغسل أقدامكم، إذ عليّ أن أخلص أقدامكم من غبار الطريق القديم، وأمنحها

الخلاص للطريق الجديد .

وعمنا جميعاً خزى وخجل .

ثم وقف سمعان بطرس وقال : كيف أثقل على هادىّ وسيدى بغسل قدمى ؟

وأجاب عيسى : سأغسل قدميك علّك تذكر أن الذى يخدم الناس هو العظيم بين الناس .

ثم نظر إلى كل منا وقال : إن ابن الإنسان الذى اصطفاكم لتكونوا له إخوة ، هذا الذى طُهرت قدماه بالأمس بِمُرٍّ بلاد العرب وجُفِّفتا بشعر امرأة يريد الآن أن يغسل أقدامكم .

وأخذ الحوض والإبريق وجثا على ركبتيه يغسل أقدامنا بادئاً بيهوذا الأسخريوطى .

ثم جلس معنا على المائدة ، وإن وجهه لكالفجر يشرق على ساحة القتال فى أعقاب ليلة من نزاع وسفك دماء .

ثم جاء صاحب الخان وزوجه يحملان طعاماً ونبيذاً . ومع أنى كنت أحس الجوع قبل أن يجثو عيسى على ركبتيه بين قدمى ، فقد فقدت الآن شهوتى للطعام .

وكان ثمة لهيب فى حلقى أود أن أطفئه بالنبيذ .

ثم أخذ عيسى رغيفاً وأعطانا إياه وهو يقول : لعلّنا لا نكسر الخبز معًا مرة أخرى . فلنأكل هذه الكسرة فى ذكرى أيامنا بالجليل .

ثم صب النبيذ من القدر فى قدح وشرب وأعطانا وهو يقول : اشربوا هذا ذاكرين الظمأ الذى عرفناه معاً ، واشربوه أيضا آملين فى خمر جديدة .

وحين تُطْوَى صفحتى ولا أعود أمثل بينكم ، وحين تلتقون هنا أو فى مكان آخر اكسروا الخبز وصبّوا النبيذ وكلوا واشربوا كما أنتم الآن فاعلون ، ثم انظروا فيما حولكم فقد ترونى جالساً معكم إلى المائدة .

وما إن قال هذا حتى أخذ يفرّق بيننا قطعاً من السمك والديوك البريّة كأنما هو طائر يطعم أفراخه الصغيرة .

وأكلنا قليلا ، غير أننا امتلأنا وما شربنا غير قطرة ، إذ كنا نشعر أن القدح أشبه بالفضاء بين هذه الأرض وأرض أخرى .

ثم قال عيسى : وقبل أن نترك هذه المائدة فلننهض ولننشد أناشيد الجليل المرحة .

ونهضنا وأنشدنا معاً ، وكان صوته يعلو أصواتنا . وكانت ثمةَ رنّةٌ فى كل كلمة من كلماته .

ثم تطلّع إلى وجوهنا جميعاً ، ثم إلينا وجهاً وجهاً وقال : والآن أقول لكم وداعاً . فلنمض إلى ما وراء هذه الأسوار ، ولنمض إلى بستان جثسيانى .

وقال يوحنا بن زبدى : سيدى ، لم تقول لنا هذه الليلة : وداعا ؟

وقال عيسى : لا تُعنُّوا قلوبكم ، إنما أترككم لأهيئ لكم مكاناً فى

بيت ربّى ، فإذا أصبحتم فى حاجة إلىّ فسوف أعود إليكم ، وأنّى دعوتمونى سمعت لكم ، وحينما طلبتنى أرواحكم فسألبّى النداء .

لا تنسوا أن الظمأ يقود إلى معصرة النبيذ ، وأن الجوع يقود إلى وليمة العرس .

وفى هدى شوقكم سوف تجدون ابن الإنسان ، إذ الشوق هو ينبوع النشوة ، ثم هو الطريق إلى الرب .

ثم تكلم يوحنا ثانية وقال : إذا كنت تاركنا حقًّا فأنّى لنا البِشْرُ الجميل ، ثم ما بالك تتحدث عن الفراق ؟

وقال عيسى : إن الغزال المطارَد يعرف سهام الصائد قبل أن يحسّها فى صدره ، وإن النهر ليحذر البحر قبل أن يدرك ساحله : ولقد مشى ابن الإنسان فى سبيل الناس . وقبل أن تُهدى لَوْزَةٌ أخرى زهراتها للشمس ، سوف تبلغ جذورى قلب حقل آخر .

عندها قال سمعان بطرس : سيدى ، لا تتركنا الآن ولا تحرمنا الأنس بمحضرك . فحينما تذهب سنذهب نحن أيضاً ، وحينما تقم هناك نقم نحن أيضاً .

فوضع عيسى يده على كتف سمعان بطرس وابتسم إليه وقال : من يدرى فقد تنكرنى أنت قبل أن تمضى هذه الليلة وتتركنى قبل أن أتركك .

وبغتة قال : الآن فلنرحل عن هذا المكان .

ثم نزل من الخان وتبعناه . غير أننا عندما أدركنا بوابة المدينة تلفتنا فإذا يهوذا الأسخريوطي ليس بيننا . وجزنا وادي جهنّوم، يتقدّمنا عيسى كثيراً ، نمشي أحدنا في لصق الآخر .

وعندما أدركنا حرجة من حرجات الزيتون وقف والتفت إلينا وهو يقول : استريحوا هنا ساعة .

كانت أمسية باردة مع أن الربيع كان في إبانه ، وشجيرات التوت قد تفتحت براعمها ، وشجرات التفاح مُزهرة ، والبساتين زاهية .

وسعى كل منا إلى جذع شجرة ورقدنا وجمعت حولي ثوبي واضطجعت تحت شجرة صنوبر .

غير أن عيسى تركنا ومشى وحده في حرجة الزيتون ، وكنت أرقبه والآخرون نيام .

فكان يتلبّث فجأة ثم يعود فيمشي مُصْعِداً وهابطاً ، يفعل هذا مرات كثيرة .

ثم رأيته يرفع وجهه إلى السماء ويبسط ذراعيه إلى الشرق وإلى الغرب .

وقال مرة : « إن السماء والأرض، والجحيم أيضاً، هي من الإنسان . »

والآن وقد ذكرت قوله فقد عرفت أن هذا الذي كان يضرب في حَرجة الزيتون كان هو نفسه السماء في صورة إنسان . وإني لأحدّث نفسي قائلا : إن بطن الأرض ليس بداية وليس نهاية ، وما هو إلا معْبَر ووقفة ولحظة من لحظات العجب والدهش . وأما عن الجحيم فقد رأيتها

أيضاً : فى ذلك الوادى الذى يُدعى جهنّوم ، والذى يقبع بين عيسى وبين المدينة المقدسة .

وإذ وقف عيسى هنالك ، وقبعت أنا فى دثارى سمعت صوته يتكلم ، غير أنه لم يكن يتحدث إلينا . وثلاثاً سمعته يردد كلمة « أيها الرب » ، وكان ذلك كل ما سمعته .

وبعد برهة استرخت ذراعاه وظل واقفاً وكأنه شجرة سرو تمتدّ بين عينىّ والسماء .

وأخيراً عاد إلينا فكان بيننا ثانية ثم قال : اصحوا وانهضوا فلقد حانت ساعتى وها هى ذى الدنيا قد أطبقت علينا بسلاحها لحربنا .

ثم قال : منذ لحظة سمعت صوت ربّى ، فإذا أنا لم أركم بعد ، فاذكروا أن الغازى لن يُخلد إلى أمن حتى يُغزى .

وعندما نهضنا وأصبحنا فى جواره كان وجهه أشبه بالسماء ذات النجوم تطلّ على الصحراء .

ثم قبلنا واحداً واحداً ، يضع قبلته على خدّ كل منا ، وعندما لامست شفتاه خدى كانتا حارتين حرارة يد طفل محموم .

وفجأة سمعت جلبة عالية على البعد ، وكأنها لجمع . وما إن دنت منا حتى تكشفت عن عدد من الرجال يقتربون بالمصابيح والعصى جاءوا مهرولين .

وعندما أدركوا سياج الغيضة تركنا عيسى واتجه قُدُماً ليلقاهم . وكان يهوذا الأسخريوطى يقودهم . وكانوا جنداً من الرومان بسيوفهم وحرابهم ورجالا من بيت المقدس بهراواتهم ومعاولهم .

وتقدم يهوذا من عيسى وقبله ثم قال للرجال المسلحين : هـــذا هو الرجل .

وقال عيسى ليهوذا : يا يهوذا ، لقد كنت معى من الصابرين ، وقد كنت خليقاً أن تفعل بالأمس ما تفعله اليوم !

ثم التفت إلى الرجال المسلحين وقال : خذونى الآن وليكن سجنكم من السعة بحيث يتسع لهذه الأجنحة .

وعندما أطبقوا عليه وأمسكوا به كانوا كلهم يتصايحون ، غير أننا كنا من الرعب نولّى بعيداً نطلب مأمناً . وجريت وحدى فى حرجات الزيتون لا قوة لى فأعى ، ولا أملك صوتاً ينطق بغير خوفى . وخلال الساعتين أو الثلاث التى بقيت من تلك الليلة كنت أفر وأختبئ ، وعند الفجر وجدت نفسى فى قرية قريبة من أريحه .

لماذا تركته ؟ لست أدرى . ولكنى — وا أسفاه — تركته ، وكنت جباناً ، ففررت من وجه أعدائه .

ثم أحسّ قلبى الألم والحزن والخزى ورجعت إلى بيت المقدس ، غير أنه كان قد أودع السجن ، وما كان بمقدور صديق أن يكلمه .

وصُلب وصَنع دمه للأرض طينة جديدة .

أما أنا فلا أزال حيًّا، أعيش على قرص الشهد الذى خلفته حياته الحلوة .



سمعان القيرواني

كنت في طريقي إلى الحقول حين رأيته يحمل صليبه وفي إثره جماهير غفيرة .

عندها مشيت أنا الآخر إلى جانبه .

وكم من مرة توقف إعياء بما يحمل ، إذ كان مجهد الجسم .

وتقدم مني جندي روماني وقال : تعال ، إنك لقوي متين البنية ، احمل عن هذا الرجل الصليب .

وما إن سمعت هذه الكلمات حتى امتلأ قلبي زهواً وكنت شكوراً .

وحملت عنه صليبه .

وكان ثقيلا إذ كان من خشب الجوز وأُشرب أمطار الشتاء .

ونظر إليّ عيسى وعرق جبينه ينحدر على لحيته .

ثم نظر إليّ ثانية وقال : « أتشرب أنت الآخر هذا القدح ؟ لترشفنّ معي حقاً من حافته إلى الأبد . »

وما إن قال هذا حتى وضع يده على كتفي الخالية ومشينا معاً نحو تل الجلجثة .

وما أحسست إذ ذاك بثقل الصليب ، وإنما أحسست بيده ، وكانت

أشبه بجناح الطائر فوق كتفى ، ثم أدركنا قمة التل حيث كانوا يزعمون أن يصلبوه .

عندها أحسست بثقل الصليب .

وما فاه بكلمة حينما أنفذوا المسامير فى يديه وقدميه ، كما لم تصدر عنه همسة وما ارتجفت أطرافه تحت طرق المطرقة .

وخيل إلىّ أن يديه وقدميه قد ماتت وأنها لن تحيا ثانية إلا عندما يغمرها الدم ، وخيل إلىّ أيضاً أنه يطلب المسامير طلب الأمير للصولجان ، وأنه يتوق إلى أن يسمو إلى الذُّرى .

وما اختلج قلبى بالرثاء له ، إذ كنت أنا الآخر ممتلئاً عجباً . والآن أصبح هذا الرجل — الذى حملت صليبه — صليباً لى ؛

وإذا قُدّر أن يقال لى ثانية : احمل صليب هذا الرجل . فلسوف أحمله إلى أن ينتهى بى الطريق إلى القبر .

ولكنى سوف أطلب إليه أن يضع يده على كتفى .

* * *

حدث هذا منذ سنين كثيرة ، ولكنى ما زلت أفكر أبداً فى ذلك الرجل المحبوب كلما اقتفيت الأخدود فى الحقل ، وفى كل لحظة من تلك اللحظات الغافية التى تسبق النوم .

وما زلت أشعر بيده كالجناح ، هنا على كتفى اليسرى .

سيبوريا
أم
يهوذا

كان ابني رجلا طيباً صالحاً ، وكان بي رحيماً شفيقا . يحب قرابته وأهل بلده ، ويبغض أعداءنا الرومان المذمومين ، الذين كانوا يلبسون الحلل الأرجوانية وما نسجوا فيها خيطاً ولا جلسوا إلى نَوْل ؛ والذين كانوا يجنون ويجمعون حيث لم يحرُثوا أو يبذروا حبة .

وكان ابني في السابعة عشرة حين أُمْسِك به وهو يرمي بالسهام كتيبةً رومانية كانت تخترق كرمة لنا .

ولقد كان وهو في هذه السن الباكرة يتحدث إلى غيره من الشبان عن عظمة بلاده ، كما كان ينبس بأشياء غريبة كثيرة ما كنت أفهمها .

كان ابني ، وكان ابني الوحيد .

غذّى بلبان هذين الثديين اللذين هما الآن يابسان . وكان أول ما درج في هذا البستان ممسكًا بهذه الأصابع ، التي هي الآن أشبه بالقصبات المضطربة .

وبهاتين اليدين نفسيهما ، وكانتا فتيتين غضتين وكأنهما من أعناب لبنان وضعتُ أول ما لبس من نعال في منديل من الكتان أعطته إياي

أمي . وما زلت أحتفظ بهما فى ذلك الصندوق إلى جوار النافذة .

كان بكرى . وعندما بدأ يخطو بدأت أخطو ، إذ النساء لا يسعين إلا حين يقودهن أطفالهن .

وهم الآن يخبرونني أنه قضى بيديه وأنه رمى بنفسه من الصخرة السامقة ندماً على خيانته لصديقه عيسى الناصرى .

إنى أعرف أن ابنى مات . ولكنى لن أعترف بأنه خان أحداً . فلقد كان يحب عشيرته وما كره غير الرومان .

كان ابنى يسعى لرفعة بلاده ، وما كان شيء يجرى على شفتيه أو يبدو فى فعاله إلاّ وهو متصل بهذه الرفعة .

وعندما التقى بعيسى فى الطريق العام تركنى وتبعه . وكنت أدرك فى قرارة نفسى أنه يخطىء حين يتبع إنساناً ما .

وعندما آذنى بالوداع قلت له : إنه ليس مع الحق ، ولكنه لم يسمع لى .

إن أطفالنا لا يلقون بالاً لنا ، هم كتيار المدّ الجارف اليوم لا ينتصحون بمدّ الأمس الجارف .

ورجائى إليك ألاّ تزيد فى سؤالى عن ابنى .

لقد أحببته وسأظل أحبه إلى الأبد .

ولو أن الحب يخالط اللحم ، إذن لكويته بأسياخ من الحديد ملتهبة لأنال السكينة ، غير أن الحب يخالط الروح ، وما نحن ببالغيه .

والآن ما أحب أن أضيف مزيداً . امض واسأل غيرى من النساء التى لها من الشرف ما ليس لأم يهوذا .

امض إلى أم عيسى ، فهى الأخرى تحس وقع السيف فى قلبها وسوف تحدثك عنى ، وسوف تعى .

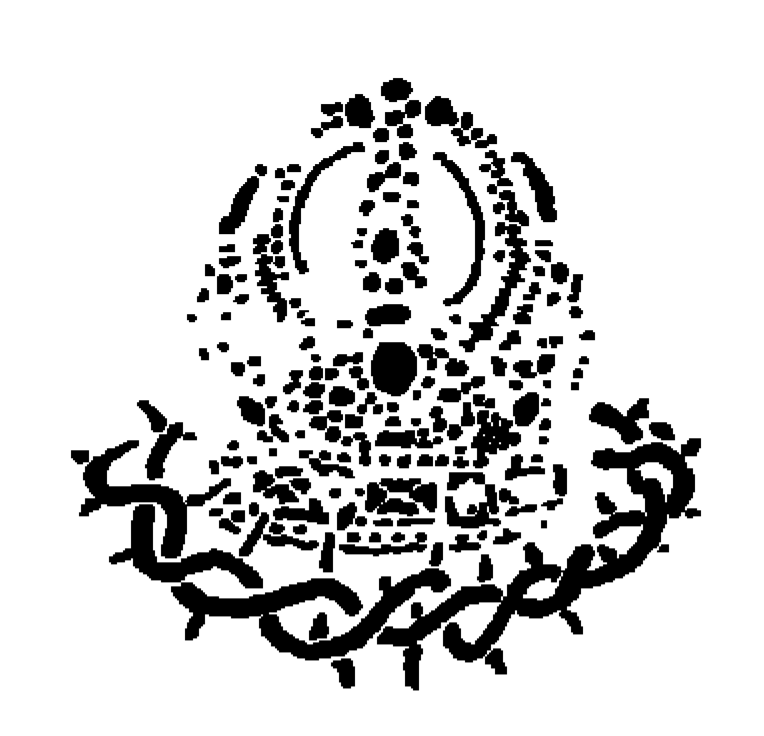


امرأة من بيبلوس

ابكين معى يا بنات عشطروط ، وأنتن يا حبيبات تموز جميعاً :
مُرْنَ قلوبكن أن تذوب وتفيض وتجرى دموعاً من دم :
فهذا الذى قد صيغ من ذهب وعاج قد ولى .
فى جوف الغابة الموحشة عدا عليه الوحش وفى لحمه نفذت أنيابه .
وها هو ذا راقدٌ مشربٌ لون أوراق العام المنصرم .
ولن تثير خطاه من بعدُ البذورَ المستكنة فى أحضان الربيع ،
ولن يطالعنى صوته مع الفجر يدخل علىّ نافذتى .
وسوف أبقى إلى الأبد وحيدة :

ابكين معى يا بنات عشطروط وأنتن يا حبيبات تموز جميعاً فلقد مضى عنى حبيبى .
الذى كان يهمس كما تهمس الأنهار .
والذى كان صوته وزمانه صنوين :
والذى كان فمه ألماً دامياً استحال عذباً .
والذى على شفتيه يستحيل المُرُّ شهداً .

ابكين معي يا بنات عشطروط أنتن يا حبيبات تموز جميعاً .
ابكين معي حول نعشه كما تبكي النجوم .
وكما يساقط شعاع القمر كأوراق الزهور على جسده الجريح .
بلّلن بدموعكن أغطية فراشي الحريرية ،
حيث رأيت حبيبي فى أحلامى يرقد إلى جوارى ،
فما إن نضوت عني ثوب الكرى حتى خلّفني وراح .
إليكن أطلب يا بنات عشطروط وأنتن يا حبيبات تموز جميعاً ،
أن تكشفن صدوركن وتبكين وتخففن عني .
فلقد مات عيسى الناصرى .



مـريم المجدليـة
بعد ثلاثين عامًا

من جديد أقول : إن عيسى قهر بموته الموت ، ونهض من اللّحد روحاً وقوة ، وسار بيننا يؤنس وحدتنا ، ويُلم برياض هوانا .

هو لا يرقد هناك فى تلك الصخرة المشقوقة خلف الصخور .

ونحن الذين أحببناه رأيناه بهذه الأعين التى جعلها تبصر ، ولمسناه بهذه الأيدى التى ألهمها أن تمد متطلعة .

وإنى بكم عارفة يا من لا تؤمنون به، ولقد كنت من بينكم وإنكم لكثيرون غير أن عددكم إلى تناقص .

أحتمٌ عليكم أن تكسروا عودكم وقيثارتكم لتشعروا بما فى باطنهما من نغم ؟

أوحتمٌ عليكم أن تقطعوا الشجرة قبل أن يكون لكم إيمان بأنها مثمرة ؟

لقد أبغضتم عيسى لأن نفراً من بلاد الشمال قال إنه ابن للرب ، غير أنكم تكرهون بعضكم بعضاً ، لأن كلا منكم يرى نفسه أكبر من أن يكون أخاً لجاره .

لقد أبغضتموه لأن نفراً قالوا : قد ولدته عذراء وليس من لقاح رجل .

وما تعرفون الأمهات اللاتى يمضين إلى القبور عذارى ، كما لا تعرفون الرجال الذين ينحدرون إلى الأضرحة شَرِقين بظمئهم .

إنكم لا تعلمون أن الأرض قد زُفَّت إلى الشمس ، وأن الأرض هى التى تدفعنا قُدما إلى الجبال والفيافى .

وإن بين هؤلاء الذين يحبونه وأولئك الذين يبغضونه ، هؤلاء الذين يؤمنون به وأولئك الذين لا يؤمنون ، لهوّة فاغرة .

ولكن عندما تقيم السنون على تلك الهوّة جسراً ، فسوف تعرفون أن هذا الذى عاش بيننا لا يموت ، وأنه كان ابناً للرب كما نحن أبناؤه ، وأنه قد ولدته عذراء كما تلد الأرض وهى لا زوج لها .

ومن عجب أن الأرض لا تمدّ الجاحدين بالجذور التى تريد أن تمتص غذاءها، ولا بالأجنحة التى بها يحلقون فينهلون ويرتوون بما فى فضائها من ندى .

غير أنى أعرف ما أعرف وهذا حسبى .



رجل من لبنان
بعد تسعة عشر قرنا

أيها السيّد ، يا سيّد من شدا :
يا من تملك الكَلِمَ غير المنطوق .
وُلِدت سبعاً ومِتَّ سبعاً .
منذ إلمامك العَجِل وترحيبنا الوجيز ،
وها أنذا أعيش ثانية ،
أحمل ذكرى يوم وليلة بين التلال ،
حينما علا بنا مَدُّك ،
ومن ثم جُزت بلاداً كثيرة وعبرت بحاراً عدّة ،
وحيثما توليت يقودنى سرج أو يهدينى شراع ،
كان اسمك صلاتى وحجّتى .
يحمدك الناس أو يجحدونك ،
والجحود غضبة على الفشل ،
والحمد ترنيمة الصائد ،
الذى يؤوب من التلال بالزاد لرفيقته .

* * *

إن صَحْبَك ما زالوا معنا راحة وأمنًا .
وكذلك أعداؤك قوة وطمأنينة .
أمّك معنا ،
أرى بهاء وجهها فى محيّا الأمهات جميعاً ،
تهدهد بيدها المهاد فى رفق ،
وتطبق بيدها الأكفان فى حنان .
ولا تزال مريم المجدلية بيننا ،
هذه التى شربت خلّ الحياة ثم خمّرها .
ويهوذا رجل الألم وتوافه الأطماع ،
هو الآخر يجوب الأرض .
ما انفكّ يأكل نفسه حين لا يجد جوعه ما يأكله ،
ويطلب ذاته الكبرى فى تحطيم ذاته .

ويوحنا — الذى تاق شبابه إلى الجمال — هنا
يغنى فلا يسمعه أحد .

وسمعان بطرس المندفع الذى جحدك علّه يعيش بعدك من أجلك .
ها هو ذا الآخر يجلس مستدفئاً إلى نارنا ،
قد يجحدك ثانية قبل مطلع فجر يوم آخر .
غير أنه يريد أن يُصلب من أجلك ، ويعدّ نفسه غير جدير بالشرف .
ولا يزال قيافا وحنّان يعيشان يومهما ،
ويقضيان بين المسىء والبرىء ،
يناماك على الفراش المريش ،
على حين يُساط هذا الذى حكما عليه بالسياط .

والمرأة التى أُخذت بالفسق ،
لا تزال هى الأخرى تسعى فى شوارع مدننا ،
يُمِضُّها الشوق إلى خبز لم يُخبز بعد ،
وحيدة فى بيت خال .
وبيلاطس البنطى هنا هو الآخر ،
يقف خاشعاً بين يديك ،
لم ينقطع عن سؤالك ،
غير أنه لا يجرؤ أن يجازف بمنصبه ، أو أن يتحدّى شعباً أجنبياً .

وهو لا يزال يغسل يديه .
وإلى الآن ما زالت أورشليم تُمسك بالمغسل كما تمسك رومه بالإبريق .
وبين الاثنين ألوف وألوف من الأيدى تريد أن تغتسل لتنقى وتَطْهُر .

أيها السيّد ، يا سيّد من شعر .
يا من يملك الكلمات ، تُغنّى وتُقال .
لقد شيّدوا الهياكل ليأوى إليها اسمُك .
وفوق كل مرتفع رفعوا صليبك ،
علامة ورمزًا لهداية أقدامهم الضّالة ،
ولكن لا للفرح الذى هو أنت .
إن فرحك تلٌّ ، لا تصل إليه أنظارهم ،
وليست فيه راحة لنفوسهم ،
إنهم يريدون أن يمجّدوا رجلا لا يعرفونه .
وأى عزاء لهم فى رجل مثلهم .
رجل له رقةٌ مثل رقّتِهم .
إله ، حبه أشبه بحبهم .
ورحمتُه ماثلةٌ فى رحمتهم .

هم لا يمجدون الرجلَ ، الرجلَ الحيّ .
الرجل الأول الذى فتح عينيه يتطلع إلى الشمس بجفنين لا يرتجفان .
أجل . هم لا يعرفونه ، ولا يريدون أن يكونوا مثله .

* * *

إنهم يريدون أن يكونوا مجهولين ، يسيرون فى موكب المجهول .
بودّهم لو حملوا الأسى ، أساهم هم .
وما هم بواجدين فى فرحك راحة .
لا تلتمس قلوبهم الكليمة العزاء فى كلماتك ، ولا فى ألحان هذه الكلمات .
فألمهم ألمٌ صامت لا صورة له .
يحيلهم مخلوقات تعيش فى عزلة ، لا يزورها أحد ،
رغم أنهم محاطون بعشائرهم وبنى جنسهم .
يعيشون فى خوف ، لا يخطب أحد ودّهم .
ومع ذلك فهم لا يريدون أن يحيوا فى وحدة .
بودّهم لو انحنوا نحو المشرق حين تهب الرياح من الغرب .
إنهم يدعونك ملكًا ،
ويريدون أن يكونوا فى بلاطك .
يعلنون أنك المسيح المنتظر .
ويرغبون هم أنفسهم لو مُسحوا بالزيت المقدس .

أجل . يريدون أن يعيشوا من خياتك .

أيها السيد ، يا سيد من شدا ،
كانت دموعك أشبه بشآبيب مايو ،
وضحكاتك أشبه بأمواج البحر الأبيض .
وحين تكلمت كانت كلماتك الهمسات النائية الخليقة أن تجرى على شفاههم
حين يقدر لتلك الشفاه أن تشتغل ناراً .
وضحكت عن ذلك النخاع التي تحويه عظامهم
ولما يتهيأ له بعد أن يضحك .
وبكيت عن عيونهم التي لم تذرف الدمع بعد .
وكان صوتك لفكرهم وفهمهم أباً ،
وكان صوتك لكلماتهم وأنفاسهم أماً .

* * *

وُلدت سبعاً ومِتَّ سبعاً .
وإنى الآن أعيش ثانية ، وإنى لأراك
المحارب بين المحاربين
والشاعر فوق الشعراء :

والملك فوق الملوك جميعاً ،
ورجلا عارياً — أو يكاد — بين رفاق الطريق .
ومع كل يوم يحني القس رأسه
حين يلفظ باسمك ،
ومع كل يوم يقول الشحاذون
« من أجل عيسى »
أعطونا درهماً لنشترى خبزاً .
يسأل بعضنا البعض ،
ونحن في الحق إنما نسألك .
فلأنت أشبه بالمدّ المتدفق فى ربيع حاجتنا ورغبتنا .
وعندما يحلّ الخريف أشبه بالجزر فى انحساره ،
يجرى اسمك على شفاهنا جهراً أو همساً ،
يا مالك الرحمة السرمدية .
أيها المالك . مالك ساعات وحدتنا .
هنا وهناك بين المهد واللحد ،
ألقى إخوتك الصامتين ،
الرجال الأحرار غير المصفّدين ،
أبناء أمك : الأرض والفضاء ،
أشبه بالطير فى جو السماء ،

وزهرات الزنبق فى الحقل ،
يَحْيَوْنَ حياتك ويفكّرون فكرك ،
ويُرجِّعون صدى أنشودتك ،
ولكنهم فارغو الأيدى .
وما صُلبوا الصلب الأكبر ، وفى هذا عذابهم .
فالدنيا تصلبُهم مع كل يوم
ولكن بوسائل يسيرة .
فالسماء لا تضطرب ،
والأرض لا تتمخض عن موتاها .
هم يُصلبون وليس من يشهد كربهم .
يحرّكون وجوههم يَمنةً ويسرة ،
فلا يجدون من يَعِدُهم منزلة فى ملكوته .
وهم على هذا يودّون لو صُلبوا مرة ثم مرة ،
لعل ربّك يكون لهم ربًّا ،
ومولاك يكون لهم مولى .

أيها السيّد ، يا سيّد مَن أحبّ .
إن الأميرة ترقب مقدمك فى مخدعها العطر ،

وكذا المرأة المتزوجة ولا زوج فى محبسها ،
والبغىّ التى تطلب خبزاً فى طرقات عارها ،
والراهبة فى ديرها ولا زوج لها .
وكذلك المرأة العاقر أمام نافذتها ،
حيث يرسم الصقيع الغابة على صفحة الزجاج ،
فتطالعك فى هذا التناسق ،
وتودّ لو كانت لك أمًّا فتستشعر السكينة .

أيها السيّد ، يا سيّد من شَعر
ربّ رغباتنا المكبوتة ،
إن قلب العالم ينتفض مع خفق قلبك ،
غير أنه لا يحترق مع أغنيتك .
تقبع الدنيا مُصْغيةً لصوتك فى حُبورٍ وادع ،
ولكنها لا تنهض من مجلسها ،
فتتسلق ظهور تلالك .
يريد الإنسان أن يحلم حلمك ولا يرغب فى أن يستيقظ على فجرك ،
الذى هو حلمه الأكبر .
وهو يودّ لو يبصر ببصيرتك ،

ولكنه لا يحب أن يجرّ قدميه الثقيلتين إلى عرشك .
ومع هذا فإن كثيرين قد تُوِّجوا باسمك
واتّشحوا بقوتك ،
وجعلوا من مقدمك الذّهبي تيجاناً لرءوسهم وصوالج لأيديهم .
أيها السيّد ، يا سيّد النور .
الذى تسكن عينه أصابع الضّرير المتلمّسة ،
إنك ما تزال رهن احتقار وسخرية ؛
إنساناً هو أضعف من أن يكون إلهاً ،
وإلهاً أكبر شبهاً بالإنسان من أن يعبده الناس .
إنما قِدّاسهم وترنيمهم ،
وتقرّبهم وتسبيحهم ، من أجل أنفسهم الحبيسة .
ولست منهم إلاّ ذاتهم النائية ، وصيحتهم القاصية ، وهواهُم .

غير أنك أيها السيد ، يا ذا القلب السماوى ، ويا فارس أحلامنا الصّافية .
ما زلت تسرى فى يومنا .
لن تُبطئ الأقواس ولا الحراب خُطاك .
تمرق بين سهامنا جميعاً وتلقى علينا ببسماتك من علٍ .

وأنت على أنك أصغرنا جميعاً ،
أب لنا طُرًّا .
أيها الشاعر والشّادى ، يا ذا القلب الكبير .
فليبارك الله اسمك ،
والبطن التى حملتك ، والثدى الذى أرضعك ،
ولتشملنا جميعاً رحمة الله . . .



فهرست الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

كتب للمعرّب

١ – الحروب الميكانيكية : للجنرال فولر	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٢
		طبعة ثانية ١٩٥٢
٢ – تربية الطفل من الوجهة النفسية	ترجمة (بالمشاركة)	طبعة أولى ١٩٤٤
٣ – علم النفس فى خدمتك	ترجمة (بالمشاركة)	طبعة أولى ١٩٤٥
٤ – السيد آدم	ترجمة	طبعة أولى ١٩٤٨
٥ – حرب التحرير	تأليف (بالمشاركة)	طبعة أولى ١٩٥١
٦ – سروال القس : لثورن سميث	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٢
٧ – إعصار من الشرق	تأليف	طبعة أولى ١٩٥٢
		طبعة ثانية ١٩٥٧
		طبعة ثالثة ١٩٦٢
٨ – « النبى » لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٥٩
٩ – قائد البانزر : للجنرال جوديريان جزئين	ترجمة (بالمشاركة)	طبعة أولى ١٩٦٠
١٠ – « حديقة النبى » لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٠
١١ – « المعارف » لابن قتيبة	تحقيق	طبعة أولى ١٩٦٠
١٢ – اتحادنا فلسفة خلقية	تأليف	طبعة أولى ١٩٦٠
١٣ – « عيسى » لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة أولى ١٩٦٢

كتب تحت الطبع

١٤ – « رمل وزبد » لجبران خليل جبران	ترجمة
١٥ – « أرباب الأرض » لجبران خليل جبران	ترجمة
١٦ – دليل الفاجنرى الأمثل : لبرناردشو	ترجمة
١٧ – انجليزى يكتشف فرنسا : لبيير دانينوس [مذكرات الرائد طومسون]	ترجمة
١٨ – دراسة حول جبران خليل جبران	تأليف

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢


دار المعارف بمصر